محمد ﷺ

الإسراء و المعراج
تأمُّلات

محمد مبارك المزيودى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢م

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
٢٠٠٢ م

مصر الجديدة: ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
تليفون: ٢٩٠٨٢٠٣ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس: ٢٩٠٦٢٥٠

مدينة نصر: ٧١ شارع ابن النفيس- المنطقة السادسة - ت: ٢٧٢٣٣٩٨

http://www.top25books.net/bookcp.asp.
E-mail:bookcp@menanet.net

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾

صدق الله العظيم

[الإسراء : ١]

الإهداء

إلى كل من قال:

لا إله إلا الله محمد رسول الله

محمد مبارك المزيودى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هدانا إلى الطيب من القول، وأعاننا عليه بقدرته التى لا تُحَدّ. الحمد لله الذى بحمده تكتمل المسرّات ، الذى افتتح كتابه العظيم بقوله (الحمد لله)، منبّهاً عباده إلى أن حياة الإنسان فى هذه الدنيا تدور فى فلك هذه الكلمة، وإذا ابتعدت عن هذا الفلك، اختلّ توازنها، وتاهت فى فضاء الضلالة، يستقرّ بها المطاف فى جوف ثقب من ثقوب الحياة السوداء.

والصلاة والسلام على أشرف خلق الله جميعاً، محمد بن عبدالله المصطفى المختار، صاحب لواء الحمد يوم القيامة، والآية الكبرى له سبحانه فى الدنيا والآخرة، صلاةً نرجو بها شفاعته، والجلوس فى حضرته، فى ظلّ الله تعالى ورحمته، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وبعد،،،

فهذا بعض ما يسره لى جلّ شأنه من أفكار ومن كلمات فى معجزة الإسراء والمعراج، أثناء قراءتى للأحاديث التى ذكرت هذه الآية. فتواردت إلى ذهنى أثناء القراءة معانى لم أتردّد فى تدوينها، ولم أخش دلالتها، مُسْتَفتياً فى ذلك قلبى، كما قال سيد المرسلين:

« استفت قلبك ولو أفتاك المُفْتُون».

ومع ذلك، فإن هذه الرؤية لم تأت غَفْلاً من الأدلّة والبراهين، بل تضافرت الأدلة اللغوية والدينيَّة والعلميَّة والمنطقية لدعم تلك الرؤية.

وإنى لأرجو من الله تعالى ألا أكون ممن قال فيهم جل شأنه:

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾[الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

ونُصْبَ عينىَّ كان قول رسول الله ﷺ :«إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، ما يظنّ أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله عزَّ وجلّ عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه» [رواه الترمذى وابن ماجه].

فكنت أحسب حساباً لكل كلمة أدوّنها، خوف أن تكون إحدى هذه الكلمات من ذلك الفصيل المهلك.

لذلك فإنى أدعو الله تعالى أن يجنبّنى الخطأ والزلل فى القول والعمل، وأن يضاعف لى أجر ما صحّ من القول، ويتجاوز لى عمّا جانبته من الصواب.

واحتياطاً لنفسى، وحرصاً على موقفى بين يدى رب العالمين، أقول لكم:

إن هذا هو اجتهادى فى أمر الإسراء والمعراج، أعرضه عليكم، محمَّلاً إيّاكم وزر السكوت عن أى كلمة أو فكرة ، تجدون فيها انحرافا عن المسار الصحيح، قابلاً منكم، بكل رحابة صدْرٍ أى انتقاد لما ورد فى هذا الكتاب.

﴿ وَلِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾[الروم : ٤]

محمد مبارك المزيودى

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [**الإسراء**: ١].

(**سبحان**) معناه التنزيه والبراءة لله عزّ وجل من كل نقص، وقد روى طلحة ابن عبيد الله الفياض، أحد العشرة، أنه قال للنبى ﷺ: « ما معنى سبحان الله؟ فقال. تنزيه الله من كل سوء».

(**أسرى**) الإسراء : سير الليل.

(**بعبده**) قال العلماء: لو كان للنبى ﷺ اسم أشرف منه، سمّاه به فى تلك الحالة العليّة. قال القشيرى. لما رفعه الله تعالى إلى حضرته السنيَّة، وألقاه فوق الكواكب العلويَّة، ألزمه اسم العبوديّة[1].

(**لنريه من آياتنا**) اللام هنا لام التعليل، فما بعدها علّة لما قبلها. بمعنى: إن الغاية التى كان من أجلها الإسراء، هى أن يُرِى الله تعالى رسوله الأكرم جملةً من الآيات، التى من شأنها:

١ - ازدياد اليقين لديه ﷺ.

٢ - وإظهار كرامته عند ربه.

وقد اختلف السلف والخلف فى طبيعة إسرائه ﷺ، أكان بالروح أم بالجسد:

١ - فذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح، ولم يفارق شخصه مضجعه، وأنها كانت

(١) تفسير القرطبى: الجزء العاشر، ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

رؤيا رأى فيها الحقائق، ورؤيا الأنبياء حق. ذهب إلى هذا عائشة ومعاوية، وحكى عن الحسن وابن اسحاق.

٢ - وقالت طائفة: إن الإسراء كان بالجسد، يقظة، إلى بيت المقدس، وإلى السماء بالروح. واحتجوّا بقوله تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا**﴾. فجعل المسجد الأقصى غاية الإسراء. وقالوا: لو كان الإسراء بجسده إلى زائد عن المسجد الأقصى لذكره، فإنه يكون أبلغ فى المدح.

٣ - وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه كان إسراء بالجسد وفى اليقظة، وأنه ركب البراق بمكة، ووصل إلى بيت المقدس، وصلّى فيه وقد علّق القرطبى على ذلك قائلاً:

وليس فى الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة، ولا يُعْدَل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة، ولو كان مناماً لقال بروح عبده، ولم يقل بعبده. وقوله: ﴿**مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ**﴾ [**النجم**: ١٧] يدل على ذلك[١]. ولنا فى هذا الباب بعض القول:

١ - إن الذين قصروا الإسراء على روح رسول الله إنما يخالفون كتاب الله؛ لأنّ المتّبع لكلمة (عبد) فى القرآن الكريم يجد أنها لم تأت، ولا مرَّة واحدة، دالّة على روح الإنسان فقط، بل جاءت فى جميع المواضع دالّة على الإنسان روحاً وجسداً.

وفى ظل ذلك، لا يُوجد وجْهٌ، مطلقاً، لجعل كلمة (عبد) مقصورة على الروح، إلاّ من باب عدم القدرة على تخيّل الجسد البشرى مخترقاً كل تلك المسافات، بعيدا عن قوانين الزمان والمكان.

---

(١) تفسير القرطبى: الجزء العاشر، ص ٢٠٨.

٢ - ثم إنَّ كلمة ﴿ سُبْحَانَ ﴾ ، التى جاءت فى بداية ذكر خبر الإسراء، تشير إلى أن الإسْراء كَانَ بجسد رسول اللَّه ﷺ. فالمتتبع لمادة﴿ سُبْحَانَ ﴾ فى كتاب الله تعالى، يجد أنها قد وردت فى مسارات إبراز القدرة الإلهية العجيبة. والتى كان من أجلى وأعظم مظاهرها الإسراء بجسد رسول الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

فلو كان الإسراء بالروح لما كان هناك ما يستدعى قوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ ﴾ ؛ لأن حركة الروح أثناء النوم حركة عامة، يتوفر عليها البشر جميعا، مما جعلهم لايستغربون الرؤى التى يرونها فى المنام. وحتى أن الأمم الحديثة والقديمة، التى جعلت لنفسها آلهة من دون الله، كانوا يعتقدون أن أحلامهم التى يرونها، إنما هى رسائل من الآلهة.

٣ - إن محمداً ﷺ كان يرى الرؤيا، فتأتى كفلق الصبح، ولْم يكن فى أىّ من تلك الرؤى ما كان فى إسراء رسول الله، مما يُعتبر دليلاً على أنَّ ما رآه رسول الله ﷺ فى ليلة الإسراء كان بالجسد والروح، لا بالرّوح فقط.

٤ - وقول القرطبى: « ذهب معظم السَّلَفِ والمسلمين إلى أنه كان إسراءً بالجسد وفى اليقظة، وأنه ركب البراق بمكة، ووصل إلى بيت المقدس» يعتبر لصالح من قال بأنّ الإسراء كان بالجسد.

٥ - وأما قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾[الإسراء : ٦٠] فقد اختُلف فى النظر إليها:

أ - استدلّتْ به عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ومعاوية على أن الإسراء كان بنفس رسول الله.

وقد اعتُرِض على هذا القول «بأنَّ عائشة كانتْ صغيرةً لم تشاهدْ ، وأما معاوية فكان كافراً فى ذلك الوقت، غير مُشاهدٍ للحال، ولم يحدِّث عن النبىّ ﷺ » .

ب- وفى نفس الموضع من تفسير القرطبى جاء ردُّ الفريق الثانى:

(لا يُقال فى النَّوم أسرى، وأيضاً، فقد يُقَال لرؤية العين رؤيا)[1]. وورد فى البخارى والترمذى عن ابن عبّاس قوله: هى رؤيا عين أُريها النبى ﷺ ليله أُسرى به إلى بيت المقدس[2].

فلو كان الإسراء مناماً، ووقف رسول الله ﷺ فى أهل مكّة قائلاً: لقد رأيت البارحة، فيما يرى النائم، أنىّ ذهبْتُ إلى المسجد الأقصى. لما اعترض عليه أحد؛ لأنهم، كلّهم يؤمنون بأن الإنسان فى نومه، قد يرى نفسه يفعل أموراً خارقة، لا يمكن لها بأىّ حالٍ من الأحوال أنْ تحدث فى عالم الواقع.

ولذلك؛ فإن الغرابة التى أدركها القوم هى فى كونه ﷺ قد ذهب إلى القدس بجسده وفى حالة اليقظة. وهو أمر يستحيل وقوعه تحت أىّ باب من أبواب المنطق الجاهلى، الذى استعان به قادة الكفر فى مكّة؛ ليدفعوا عددا من الذين أسلموا إلى الارتداد عن الإسلام، حتى أنهم طمعوا فى أنْ يرتدَّ أبو بكر الصديق عندما يسمع منهم أن رسول الله يقول إنه قد ذهب ليلاً إلى المسجد الأقصى، وعاد فى نفس الليلة.

رُوى أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه، قيل له صبيحة الإسراء: إن صاحبك يزعم أنه جاء البارحة من بيت المقدس. فقال: إن كان قال ذلك فقد صدق. فقيل له: أتصدّقه قبل أن تسمع منه؟! فقال: أين عقولكم؟ أنا أصدّقه بخبر السماء، فكيف لا أصدّقه بخبر بيت المقدس، والسماء أبعد منها بكثير؟![3].

فلو كان الأمر مناماً لما كانت كل هذه الضجَّة، فالكل يرى أحلاماً عجيبة وغريبة، ولكن أن تكون هذه الغرابة مقرونة بالجسد فذلك الذى يُوقع فى البلبلة،

---

(١) تفسير القرطبى: الجزء العاشر، ص ٢٠٨.

(٢) السابق: الجزء العاشر، ص٢٨٢.

(٣) السابق: الجزء العاشر، ص٢٨٣.

التى أشار إليها جل شأنه فى الآية الكريمة، وهو أنه جعل تلك الرؤيا فتنة، يختبر بها إيمان من آمن برسول الله ﷺ.

٦ - ومن بين الأدلة التى من شأنها تأكيد الإسراء بجسد رسول الله ﷺ، ورود حادثة الإسراء والمعراج فى الصحيحين: صحيح البخارى، وصحيح مسلم، قال القرطبى: (ثبت الإسراء فى جميع مصنفّات الحديث، وروى عن الصحابة فى كل أقطار الإسلام، فهو من المتواتر بهذا الوجه، وذكر النقاش ممن رواه عشرين صحابياً)[1].

حَدِيْثُ الإِسْرَاءِ

١ - ورد فى صحيح البخارى:

حدثنا هدبة بن خالد حدثنا همّام عن قتادة ح وقال لى خليفة حدثنا يزيد بن زريع حدثنا سعيد وهشام، قالا: حدثنا قتادة حدثنا أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضى الله عنهما، قال: قال النبى ﷺ :« بينما أنا عند البيت بين النائم واليقظان، وذكر يعنى رجلا بين الرجلين، فأتيت بطست من ذهب، مُلئ حكمة وإيماناً، فشق من النحر إلى مراق[2] البطن، ثمّ غسل البطن بماء زمزم، ثمّ مُلئ حكمة وإيماناً، وأتيت بدابّةٍ دون البغل وفوق الحمار..» ويعرض باقى الحديث لمعراج رسول الله ﷺ.

٢ - ويزيد مسلم فى صحيحه على رواية البخارى:

(.. أُتيت بالبراق، وهو دابة أبيض طويل، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه. قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس. قال: فربطته بالحلقة التى يربط بها الأنبياء، قال: ثمّ دخلت المسجد، فصلّيت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءنى جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن. فقال جبريل: اخترت الفطرة، قال: ثم عرج بنا إلى السماء...».

---

(١) تفسير القرطبى: الجزء العاشر، ص ٢٠٥.

(٢) مراق : الموضع ما بين أسفل البطن وفوق الفرج.

٣ - ومن بين الروايات التى لم ترد فى الصحيحين:

وهو ما خرّجه الآجرّى والسمرقندى، عن أبى سعيد الخدرى، قال: حدثنا رسول الله ﷺ عن ليلة أسرى به، فقال: « أُتيت بدابّة هى أشبه الدواب بالبغل، له أذنان يضطربان، وهو البراق، الذى كانت الأنبياء تركبه قبل، فركبته، فانطلق تقع يداه عند منتهى بصره، فسمعت نداء عن يمينى: يا محمد، على رسلك حتى أسألك فمضيت، ولم أعرّج عليه. . ثمّ سمعت نداء عن يسارى: يا محمّد على رسلك. فمضيت، ولم أعرّج إليه ثمّ استقبلتنى امرأة عليها من كل زينة الدنيا، رافعة يديها، تقول: على رسلك حتى أسألك، فمضيت ولم أعرّج . ثم أتيت ببيت المقدس الأقصى، فنزلت عن الدابّة، فأوثقته فى الحلقة التى كانت الأنبياء توثق بها، ثم دخلت المسجد، وصلّيت فيه. فقال لى جبريل عليه السلام: ما سمعت يا محمّد؟ فقلت: سمعت نداء عن يمينى يا محمد على رسلك، حتى أسألك، فمضيت ولم أعرّج. فقال: ذاك داعى اليهود، ولو وقفت لتهوّدت أمتك. قال: ثم سمعت نداء عن يسارى على رسلك؛ حتى أسألك، فمضيت، ولم أعرّج عليه. فقال: ذاك داعى النصارى، أما إنك لو وقفت لتنصّرت أمتك. قال: ثم استقبلتنى امرأة عليها من كل زينة الدنيا، رافعة يديها، تقول: على رسلك، فمضيت، ولم أعرّج عليها. فقال: تلك الدنيا، لو وقفت لاخترت الدنيا على الآخرة. قال: ثمّ أُتيتُ بإناءين، أحدهما فيه لبن، والآخر فيه خمر، فقيل لى: خذْ، فاشربْ أيهما شئت. فاخترت اللبن، فشربته، فقال لى جبريل: أصبْتَ الفطرة، ولو أنَّك أخذْتَ الخمر غَوَتْ أمتك. ثمَّ جاء بالمعراج، الذى تعرج فيه أرواح بنى آدم، فإذا هو أحسن ما رأيت، أولم تروا إلى الميّت كيف يُحدُّ بصره إليه، فعرج بنا حتى أتينا باب السماء الدنيا، فاستفتح جبريل. . .[1].

(١) تفسير القرطبى: الجزء العاشر، ص ٢٠٦.

أولا: مناقشة ما ورد فى غير الصحيحين:

ورد فى غير الصحيحين ذكر (داعى اليهود وداعى النصارى وداعية الدنيا).. فهل كانوا على علم بإسراء رسول الله؟

من المسلم به أن خبر الإسراء برسول الله أمر خاص بين رب العالمين وعبده محمد ﷺ، فلا وجه لاطّلاع أحدٍ من الآدميين عليه.

فمن أين جاء هؤلاء الدعاة؟

وما الذى أعلمهم بمسرى رسول الله، فجعلهم يقفون له فى الطريق؟

وهل كانوا آدميين فعلا؟

إن هؤلاء الدعاة لا يمكن بأى حال من الأحوال أن يكونوا بشراً حقيقيين؛ لأنهم لو كانوا كذلك لما كان لهم أن يعلموا بمسرى رسول الله، ولما كان لهم أن يدركوا حركة رسول الله، وهو على ظهر (البراق)؛ لأن سرعة البراق من شأنها أن تتجاوز قدرة العين البشرية على الرؤية، فهو (يضع حافره فى منتهى طرفه)، ولامنفذ لهذه الرواية سوى افتراض أن حركة البراق تباطأت، لكى يلقى هؤلاء الدعاة خطابهم إلى رسول الله، أو أنهم كانوا يتمتعون بقدرات عالية المستوى، تجعلهم يستوعبون حركة البراق. ومن ثمَّ يرسلون أصواتهم إلى راكبه. وهى افتراضات لا يمكن التسليم لها فى ظل الدلالات الأخرى التى تطرحها الرواية، كأن يكون مجرّد الوقوف للاستماع إليهم يحتّم على أمة رسول الله أن تكون يهودية أو نصرانية أو صاحبة دنيا. فالكل يعلم أن الله تعالى لا يظلم مثقال ذرّة، فكيف يكون مجرد الوقوف للاستماع إلى السؤال سبباً للحكم على أمَّة محمد بالحكم الذى أمَرّه جل شأنه على أهل الكتاب؟!

وحتى لو قلنا: إن هؤلاء الدعاة ما هم إلا ذوات أرسلها جل شأنه، لتعترض مسار رسول الله، ومن ثَمَّ لتلقى إليه بما كان منها، فهل هى ذوات كافرة أم ذوات مؤمنة؟ فإن كانت ذوات كافرة، فمن أين جاءت؟

هل أرسلها رب العالمين من السماء؟... فالسَّماء لا يوجد فيها إلا الأتقياء. ومن بين هؤلاء الأتقياء ملائكة الرحمن.. فهل يكون هؤلاء الدعاة ملائكة تمثّلوا بشراً أسوياء، كما كان يفعل جبريل عليه السلام مع رسول الله؟ .. وإن كانوا كذلك فما معنى أن تكون دعوتهم رسول الله إلى الوقوف سبباً للتهويد أو التنصير مع أنهم ملائكة مقربون؟ وهو أمر - كما ترون .. لا يستقيم أبدا؛ أن تكون دعوة الملائكة والاستجابة لها سبباً للخروج عن ملّة الإسلام.

ثانياً: مناقشة ما ورد في الصحيحين:

١ - قوله: "أتيت بطست من ذهب ملئ حكمة وإيمانا" البخاري ومسلم، فلماذا الذهب؟

قبل الإجابة على السؤال إليكم ما ورد في شأن الذهب في كتاب الله: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١]، ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف: ٧١].

فها هو جل شأنه يخبرنا بأن من بين ألوان النعيم المقيم في الجنة، أن أهلها يُحَلّون بأساور من ذهب، ويطاف عليهم بأوانى من ذهب وأكواب، ليكون الذهب بذلك دليلاً على أكرم ألوان العيش في الجنَّة.

أما في الدنيا، فقد حفظ جل شأنه للذهب قيمته، فكان البشر على مدى البشريَّة يرون في الذهب قيمة عالية وزينة راقية، حتى أنه أصبح مؤشراً على حياة الترف والدعة، ومن ذلك قولهم: (ولد وفي فمه ملعقة من ذهب).

وكذلك الطقوس الوثنيَّة، قديما وحديثا، درجت على استخدام الأوانى الذهبيّة في معابدهم وفي قرابينهم.

ولذلك كان الطّسْتُ الذهبي، الذي جيء به إلى رسول الله ﷺ دليلاً على كرامتين:

١ - كرامة المحتوى، (الحكمة والإيمان).

٢ - كرامة من سيقدّم له ذلك المحتوى، وهو محمد ﷺ وقوله (مُلئ حكمة وإيماناً) قد يستغربه البعض، لخروجه عن مسار القوانين المادية، إذ كيف يكون المادّى وعاء للمعنوى؟

فالحكمة والإيمان، كل منهما ذات لها كيانها الخاص بها. ولكنه كيان معنوى، يدركه العقل، ولا تقف عليه الحواس.

أما الحكمة فقد قال فيها جل شأنه: ﴿ **وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ [**البقرة**: ٢٦٩].

وهى الحكمة التى يتداولها البشر فيما بينهم على هذه الأرض، ولو كانت هى المقصودة فى حديث الإسراء لما كان هناك مبرّر لنزول جبريل عليه السلام من السماء، حاملاً إياها فى طست من ذهب.

فالحكمة هنا شىء آخر، يفوق ما يتناوله البشر على هذه الأرض، شىء يتناسب قدره مع قدر المناسبة التى كان رسول الله بصدد القيام بها.

وكذلك الإيمان المذكور، ليس إيمانا عادياً، عرضة لأن يتناوله القاصى والدّانى، بل هو إيمان عالى الدرجة، يليق بهذه المنزلة التى كان رسول الله بصدد التحوّل إليها.

ومما يدعم فكرة كون المادى وعاء للمعنوى قوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا** ﴾ [**الفتح**: ٤]، وفى موضع آخر جاء قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ [**البقرة**: ٢٤٨].

فها هى السكينة، التى ما هى إلا حالة نفسيّة تعترى الإنسان، تأتى محمولة فى تابوت. فحاول المفسرون تيسير الفكرة على العقول، فجعلوا السكينة كائناً مادياً، ورسموا له هيئة ماديّة، وذلك لكى يتمكنوا من جعل فكرة الحمل متوافقة مع ما يعرفونه فى الواقع المادى، ولكنّ النظر فى الآية قد يتعارض مع ما أرادوا تقريره، إذ كيف تكون السكينة بالصورة التى رسموها مستقرّة فى القلب؟ ليس فى قلب واحد فقط، بل فى قلوب المؤمنين جميعاً وفى وقتٍ واحد.

فمثلما جاءت السكينة محمولة فى تابوت، كذلك كانت (الحكمة والإيمان)، كلٌ منهما جاء محمولا فى طستٍ منْ ذهبٍ.

٢ - قوله (فشُقَّ من النَّحر إلى مراقِّ البطن).

(النحر) :العنق.

(مراق البطن) : الموضع ما بين أسفل البطن وفوق الفرج.

ومن الطبيعىّ أن يكون الغرض من الشق الوصول إلى الأعضاء الجوفية لرسول اللهﷺ : القلب، المعدة، والأمعاء . . . وغيرها. وليست هذه هى المرة الوحيدة التى تُجْرى فيها هذه العملية الجراحية لرسول الله، فقد أُجْريتْ له هذه العملية من قبل، وهو صغير، عند مرضعته حليمة السعدية.

الشق الأول:

عن أنس بن مالك أنّ رسول الله ﷺ أتاه جبريل. . . . . وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه، فصرعه، فشق بطنه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حَظُّ الشيطان منك. ثمّ غسله فى طستٍ من ذهب بماء زمزم، ثمَّ لأَمَهُ ثم أعاده فى مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمّه ، يعنى ظئره[1]. فقالوا: إن محمداً قد قُتِل فاستقبلوه، وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنْتُ أرى أثر ذلك المخيط فى صدره[2].

فهذه العلقة هى الباب الذى يلج من خلاله الشيطان إلى ذات الإنسان، فإذا ما تمَّ انتزاعها لمْ يجدْ الشيطان مكاناً ينفذ منه إلى قلب الإنسان. وقد أشار ﷺ إلى أنَّ القلب هو مناط صلاح الإنسان أو فساده، فقال: «ألا إن فى الجسد مضغة لو صَلُحتْ صَلُح الجسد كلّه، ولو فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب».

---

(١) الظئر : المرضعة.

(٢) صحيح مسلم، الجزء الأول، ص٨٢.

ولا يكون الإنسان صالحاً إلا بمعصية الشيطان، ولا يكون فاسداً إلا بموافقة وسوسة الشيطان، فأراد جبريل عليه السّلام أن يُخرج من قَلْبِ رسول الله تلك العلقة، لكى يحفظ قلب رسول الله وجسده، وهو صغير، من عبث الشيطان.

الشق الثانى:

وهو الذى ورد ذكره فى حديث الإسراء. ولم يكن الهدف منه إغلاق المنافذ أمام الشيطان، إنما كان من أجل إيصال رسول الله ﷺ إلى مطلق الطهارة والقدسيّة، والتى ستجعله مؤهلاً لاختراق الحجب المادية، ومن ثمَّ الوصول إلى أعتاب الحضارة الإلهيّة.

٣ - قوله: (فَغُسِلَ الْبَطْنُ بِماءِ زَمْزَم).

وتعيين ماء زمزم للغسل يدل على ما لزمزم من طهارة وقدسيَّة والذى أشار إليه ﷺ بقوله: «ماء زمزم لما شرب له» [رواه أحمد وابن ماجه].

فإذا شربته للشفاء شُفيت، وإذا شربتَه للعلم عَلِمتَ، وإذا شربته للشِّبع شبعْت، وإذا شربته للسِّمن سمنْتَ... إلخ.

وبعد غسل جوف رسول الله ﷺ بماء زمزم، حصلت له الطهارة منْ كل العوالق الدنيوية.. ولم ينته الأمر عند هذا الحدِّ، فبعد التطهير جاء التطوير، وهو ملء الجوف بالحكمة والإيمان، وهو أمر من شأنه أن يقودنا إلى حديثين:

١ - الحكمة والإيمان اللتان ينالهما المرء المسلم فى الحياة الدنيا، من شأنهما أن يقوداه إلى مزيد من المعرفة بالله تعالى، ومن ثمَّ إلى مزيد من القرب إلى ربّ العالمين، عبر عنه ﷺ بقوله: « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [رواه مسلم].

والإحسان هنا ليس أمراً منفصلاً عن الإيمان، بل هو أعلى درجات الإيمان الممكنة للإنسان المادى على هذه الأرض.

٢ - ولكنّ الحكمة والإيمان المتيسّرين للإنسان على الأرض، لا يؤهِّلانه لاختراق الحجب المهولة، فاستدعى الأمر مع رسول الله قدراً أعظم وأجلّ من الحكمة والإيمان أنزلهما جلّ شأنه مع جبريل عليه السلام فى وعاء من ذهب، ليكون جوف رسول الله الوعاء التالى لهما.

ومن المسلَّم به أن الجسد المسْلِم قد يستطيع التخلُّص من بعض القيود التى تقرّها القوانين المادّية. وذلك بمزيد من الإيمان، الذى قد يسمح للإنسان بتجاوز قدر من الفعاليات المعلومة للجسد البشرى، وقد أشار ﷺ إلى ذلك فى عدّة جوانب، منها قوله: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» [رواه الترمذى].

وكذلك قوله جل شأنه فى حديث قدسى:

« ما تقرّب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىَّ مما افترضت عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببتهُ كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها. . .إلخ» [رواه البخارى وأحمد].

ومع ذلك كله فإن الإنسان المسلم لا يستطيع بإيمانه المتيِّسر له على هذه الأرض أن يخترق ما اخترقه رسول الله، ولذلك أنزل جلّ شأنه مقداراً آخر من الحكمة والإيمان فوق ما هو ممكن فى حياة الإنسان العادية، ليجعل جسد رسول الله أكثر شفافية، وأكثر تخلصا من القوانين المادية، ليكوْنَ من ثَمَّ مؤهَّلاً لاختراق الحجب الدينوية والحجب العلويَّة.

٤ - قوله (وأتيتُ بدابَّة أبيض دون البغل وفوق الحمار "البراق"). . دابّة بيضاء، دون البغل وفوق الحمار، فلا هى تشبه البغل، ولا هى تشبه الحمار، إنما تشبه نفسها، وكان اسمها (البراق).

فلماذا البراق؟

لقد جاءت هذه الكلمة متجانسة مع خبر رسول الله عندما قال فيه (يضع حافره عند منتهى طرفه) أى أنّ مساحة خطوته تبدأ من موقفه الذى يقف فيه وتَنْتهى إلى

حيث يصل بصرُه. فلو أن أحدكم وقف فى منطقة خلاء، يمتدّ فيها النظر، ثم رفع قدمه، ووضعها فى النقطة التى يقف عندها بصره. فكم تكون سرعته فى ظنكم؟

لقد اشتُقَّ (البراق) من كلمة (بَرَقَ) لنستدل من خلال ذلك على مدى سرعته. إذ أن سرعة البرق هى سرعة الضوء، وسرعة الضوء كما تعلمون هى ١٨٦٠٠٠ ميل فى الثانية. ومع ذلك، فقد لا يشترط أن تكون سرعة (البراق) هى سرعة الضوء تماماً. فقد تكون أكثر، وقد تكون أقل، ولكنها فى النهاية دابّة تستطيع اختراق المسافات، بعيدا عن قوانين الزمان والمكان التى تخضع لها الموجودات المادية.

وقد يُقال: كيف لجسد رسول الله المادى أن يحتمل تلك السرعة فلا يتأذى منها؟ ونحن نعلم أنها سرعة مهلكة للإنسان.

فأقول: نعم. إنها سرعة مهلكة. ولكنها فى هذه الحالة ليست أمراً ماديّاً بحتاً، تم إجراؤه، فقط، من خلال القوانين المادية التى يحياها الإنسان. فقد سبق وأن قلنا: إن الإسراء أمر أراده الله تعالى، وإذا أراد جل شأنه أمراً، فإنما يقول له كن فيكون.

وقد ورد فى كتاب الله تعالى حدث مشابه لذلك، وهو قوله:

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٣٨-٤٠].

فها هو عرش ملكة سبأ ينتقل من اليمن إلى فلسطين فى غمضة عين، بدون أن تؤثر سرعة الانتقال على العرش، فوصل صحيحاً سليماً على صورته التى كان عليها فى اليمن.

فاختراق قانونى الزمان والمكان أمرٌ ممكن الحدوث فى ظلّ المشيئة الإلهيَّة، التى جعلت لكل شىء سبباً.

٥ - قوله (فربطته بالحلقة التى يربط بها الأنبياء).

وما زال هذا المكان قائماً فى الأرض المقدسة، أرض المسجد الأقصى، ويعرفه المسلمون باسم (حائط البراق) ولقد توارث المسلمون جيلاً بعد جيل هذه العقيدة، وعندما أراد اليهود أن يتخذوه معبداً لهم ثارت ثائرة المسلمين، وسُمِّيت ثورتهم بـ(ثورة البراق).

ولكنها ثورة لم ترد بنى إسرائيل عما يريدون، فاستقر الأمر لهم، فألغوا تسميته التى يعرفها المسلمون، وأسموه (حائط المبكى).

وقوله (بالحلقة التى يربط بها الأنبياء) يشير إلى أن البراق كان مطيَّة الأنبياء قبل رسول الله ﷺ. ولا أعتقد أن مطيَّةً كريمة كهذه المطية، التى سخرها جل شأنه لصفوة خلقه، يمكن لها أن تكون فى إدراكها كغيرها من المطايا الدنيوية، فهى مطية عاقلة مدركة، يشير إلى ذلك الحديث التالى:

«عن أنس أن النبى ﷺ أتى بالبراق ليلة أُسْرِىَ به مسرَّجاً ملجَّما ليركبه، فاستصعب عليه وقال له جبريل: ما يحملك على هذا؟ فوالله ما ركبك أحدٌ قط أكرم على الله عزَّ وجلَّ منه. قال: فارفض عرقا» [رواه أحمد والترمذى].

وهو حديث يحتوى على شهادتين:

شهادة من جبريل عليه السلام بأن محمداً ﷺ خير الخلق جميعاً.

وشهادة أيضاً على أنَّ البراق يعلم ويدرك طبيعة الأشياء وصفاتها، فها هو يدرك قول جبريل عليه السلام فى حق محمد ﷺ، فَيَرْفَض منه العرق من شدة خجله واستحيائه من رسول الله.

وقد اعترض بعض السلف على القول بربط البراق، فقالوا: « ويتحدثون أنه ربطه. لم؟ أيفر منه؟ وإنما سخره له عالم الغيب والشهادة» [رواه الترمذى].

وقد يكون هذا القول خلط بين الواقع الذى يمارسه الإنسان وبين طبيعة البراق. فإذا كانت الدواب المعلومة تترك أماكنها إن لم تُرْبط، فإن ربط البراق ليس من هذا القبيل، لأنه دابةٌ سخَّرها جل شأنه لنبيِّه المصطفى وللأنبياء من قبله، ولا يستقيم ربط البراق إلا من خلال مسارين:

١ - أنه ﷺ رَبَطهُ لا شعورياً، لأنه كان يراه دابَّة. وبما أن العرب وغيرهم تعودوا ربط الدواب، فإنَّ ربط البراق لم يكن سوى انسياقٍ لعادة تعوّدها رسول الله فى حياته العادَّية.

٢ - أو أن (البراق) أيضاً يُربْط، ولكن ليس كربط الدواب العادية، فهو ربط يتناسب مع طبيعته هو، لا مع طبيعة الدواب الأخرى. وذلك من خلال النظر إلى أن المكان الذى تُربْط فيه الدوابّ ليس كالمكان الذى يُربْط فيه البراق. فمكان ربط الدواب نجس، لا تجوز فيه العبادة، بينما مكان ربط البراق مكان طاهر تزكو فيه العبادة، ولذلك كان من الأماكن المقدسة لدى المسلمين.

٦ - قوله :(ثمّ دخلت المسجد فصلّيت فيه ركعتين).

ولهذه الصلاة شأن جليل يتعلَّق بالمسجد الأقصى من جهة، ومن جهةٍ أخرى يتعلق بمحمد ﷺ فلقد أرادت المشيئة الإلهية لمحمَّد ﷺ أن يكون من بين الأنبياء الذين يطأون المسجد الأقصى، ويصلون فيه؛ لندرك نحن من خلال ذلك:

١ - أن من تمام كرامة محمد ﷺ أن يكون من بين حاضرى المسجد الأقصى، ومن المصلين فيه.

٢ - وأن من كرامة الأرض المقدسة والمسجد الأقصى أن يكون خاتم الأنبياء، وخير الخلق أجمعين ممن يحضرونه، ويصلون فيه.

وليس هذا فحسب، بل وأن يكون عروجه ﷺ إلى السموات من هذا المكان بالتحديد، ومن فوق تلك الصخرة التى يعرفها المسلمون، قديما وحديثاً، باسم (الصخرة المشرفة) ،والتى لم تنل هذه الصفة إلا لكونها موطئ قدم رسول الله، وهو بصدد الصعود إلى السموات، واختراق الحجب إلى المزيد من الحضرة الربانية.

وأما صلاته ﷺ بالأنبياء فى المسجد الأقصى، فهى إن صحَّت الرواية، مؤشر على علو قدر رسول الله عند ربّه، وتقدّمه على جميع الأنبياء. وهى الحقيقة التى نجد لها شواهد عديدة، من أجلاها وأجلّها حديث الشفاعة يوم القيامة.

ثم إن صلاته ﷺ فى المسجد الأقصى بعد صلاته فى المسجد الحرام مؤشرٌ على الرباط الوثيق بين هذين الحرمين، وعلى أنه من كمال تقديس أحدهما تقديس الآخر، وعدم التفريط فيه، فكل منهما كان قبلة للمسلمين، بل إن المسجد الأقصى كان القبلة المختارة من ربّ العالمين، ولكنه، إذ رأى قلب رسوله الأكرم يهفو إلى التوجّه نحو الكعبة، أمره بالتوجه إليها فى قوله: ﴿ **قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ** ﴾ [البقرة: ١٤٤].

٧ - **قوله :(فجاءنى جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن. فأخذْتُ اللبن. فقال جبريل: اخترْت الفطرةَ)**. وفى روايَّة أخرى قيل: **(ولو أنك اخترْت الخمر غوتْ أمّتك)**.

فما هى طبيعة كل من الخمر واللبن، اللذين قدِّما لرسول الله؟ وما علاقتهما بقدر الأمة؟ وما السّر فى كون اختيار رسول الله لأحدهما سبباً لتحديد مسار الأمة؟

أولاً : طبيعة الشّرايين :

١ - لا أعتقد أنه من اللائق أن تقدَّم الخمُر الحقيقيَّة إلى رسول الله، إلا من خلال بابين، أولهما: معرفة جبريل عليه السلام المسبقة باختيار محمد ﷺ. أو أنّ الأمر كان بإذنٍ من الله تعالى؛ ليجعل من اختيار رسول الله سبباً لقدر أمَّة الإسلام، الذى أراده جل شأنه للمسلمين فى علمه الأزلىّ.

٢ - ثمَّ إن حكاية الخمر تنجذب بقوّة إلى حديث الأحلام، وذلك من خلال بابين:

أ - الرؤية الاختزالية (الرمزية) من حيث أنّ فعْلاً بسيطاً محدداً، وهو شرب اللبن، يحمل فى طيّاته أحوال أمَّة محمد ﷺ فى كل زمان ومكان؛ لأنّ شرب اللبن يعنى الهداية، وشرب الخمر يعنى الغواية.

ب- ثمّ إن اللبن والخمر رمزان يندرجان ضمْنَ رموز الأحلام، فاللبن، كما قْلتُ قبل قليل، يرمز إلى الفطرة والهداية، والخمر ترمز إلى الدنيا وبهرجتها،

وانظروا إلى يوسف عليه السلام، الذى أخبره أحَدُ صاحبيه فى السجن برؤياه قائلاً: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ فكان تأويل رؤياه ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾، وهذا ما كان، فقد خرج صاحب تلك الرؤيا؛ ليصبح لاحقاً من أصحاب السلطان.

إنَّ الرؤى الرمزّية فى الأحلام تخبرك فى قسم من أحوالها بما قد يتحقق مستقبلاً. فكان شَرُبُ رسول الله ﷺ اللبن إخباراً منه جل شأنه بمستقبل أمة رسول الله.

ولم يكن اختيار رسول الله تحديداً لقدره الخاص فقط، بل وتحديداً لقدر أمته ليخبرنا جلّ شأنُه من خلال ذلك أن قدر أمةِ الإسلام من قدره ﷺ.

عَوْدٌ على بَدْءٍ

وقبل مواصلة الرحلة إلى السماء، أرى أنه من اللائق العودة إلى بداية حديث الإسراء، الذى ناقشنا فيه هيئة رسول الله عند الإسراء، هل كان جسداً متيقظاً وروحاً، أم روحاً فقط.

كنتُ قد ناقشتُ الأمر فى البداية، فذكرت عدّة جوانب، من شأنها أن تدعم القول بأن الإسراء كان بالجسد وفى اليقظة. وفى الأسطر التالية سوف أرُدّ على تلك الأدلّة، بما قد يكون نقضاً لها:

١ - قول القرطبى (ذهب معظم السَّلف والمسلمين إلى أنّه كان إسراء بالجسد وفى اليقظة) يطرح عدة حقائق لا سبيل إلى إغفالها.

أ - أن رسول الله ﷺ لم يجزْمْ بنصّ صريح على أنه أُسرى بجسده، إذ مع وجود النص الثابت لايكون هناك أىّ اختلاف.

ب- وذلك يعنى أنَّ ما قاله معظم السلف ماهو إلا اجتهاد منهم. والاجتهاد، كما تعلمون، عرضةٌ للخطأ والصواب.

جـ- قوله (معظم السلف) يثبت أنّ فريقاً آخر من السلف الصالح، قالوا بأن الإسراء كان بالروح، ومن هؤلاء عائشة أم المؤمنين ومعاوية بن أبى سفيان.

٢ - وأما الاستدلال بحركة الروح، التى تتجلَّى عند نوم الإنسان، وقولنا: إنها لو كانتْ مناماً لما وقف رسول الله فى قومه قائلاً: لقد ذهبت إلى المسجد الأقصى، ورأيت وفعلت، فيردُّه أنَّ رؤيا الأنبياء حق، لأنها جزء من النبوة، شهد بذلك رسول الله ﷺ فى قوله: « أيُّها النّاسُ، إنَّهُ لَمْ يَبْقَ منْ مُبشِّرات النُّبوَّة إلا الرّؤيَا الصَّالحة يَرَاها المُسْلِم، أو تُرى له» [رواه مسلم، وأبو داود والنسائى].

إن الإنسان عندما يرى بعينيه، يقف جازماً؛ ليقول: لقد رأيت، وهو واثق من صدق رؤيته. ولكنه إذا رأى شيئاً فى منامه، فليس له بأى حالٍ من الأحوال أن يقول جازماً: قد رأيت.

أما الأنبياء، فلهم أن يقولوا ذلك؛ لأن رؤياهم حق. وانظروا إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام، الذى رأى فى المنام أنه يذبح ولده، فأمسك سكيناً، وأراد ذبحه، ولكن الله افتداه بذبح عظيم، وقال: ﴿ **وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [**الصافات**: ١٠٤، ١٠٥]. ولو أن شخصاً آخر رأى فى المنام أنه يذبح ولده، ثم أراد ذبحه، لكان آثماً، لأن رؤياه باطلة.

فإذا ما رأت روح محمد ﷺ ما رأت فى ليلة الإسراء، وكان الإسراء بها هى، لا بالجسد، ألا يحق له أن يقول : قد رأيت وقد سمعت؟.

٣ - أما إشادتنا إلى أنّ كلمة (سبحان) الواردة فى بداية سورة الإسراء دليل على أنّ الإسراء كان بالجسد وفى اليقظة، من باب أن هذه الكلمة تأتى فى معرض ذكر مظاهر القدرة الإلهيّة التى تتجلّى بعيداً عن كل القوانين التى يعرفها الإنسان.

أقول أن هذه الإشادة لا تنفى إمكانيَّة الإسراء الرّوحىّ، لا من منظور حركة الروح، إنما من خلال النظر إلى مضمون الرؤى التى رآها رسول الله فى الإسراء والمعراج. فهى رؤى محظورة على كل الأرواح إلا روح محمد ﷺ، مع الأخذ فى الاعتبار أن رؤيا الأنبياء حق، لا يقل فى يقينه عن رؤية اليقظة، هذا إن لم تزدْ عليه.

٤ - علق القرطبى على قوله تعالى: ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ** ﴾ [**الإسراء**:٦٠]. بقوله: (قد يقال لرؤية العين رؤيا) . . وهو قول لا يعتبر حجّة لمن

قال بالإسراء الجسدى، لأن المنطق اللغوى يقول: لا يتمّ اللجوء إلى التعبير بالشاذ أو المختلف عن الاستعمال الشائع إلا فى حال الضرورة. لذلك كان الحديث عن الضرورة الشعريَّة، التى لا تَعْنى سوى عَجْز الشاعر، ومن ثَمَّ اضطراره إلى المخالفة اللغوية، حتى يستقيم الوزن لديه..

أما فى كتاب الله تعالى، فليس هناك ضرورة تلجئ رب العالمين إلى استخدام المختلف؛ لأن الضرورة لا تجوز فى حقّه جل شأنه؛ لأنها، أى الضرورة، مظنَّة العجز. سبحانه وتعالى، فهو القدير المقتدر، الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

لقد استقرّ القول فى اللغة على أنّ الرّؤية للعين، والرؤيا لما يراه الإنسان فى منامه.. ولوكان ما رآه ﷺ رؤية عين لما قال (رؤيا)، إذ لا ضرورة تحتمّ اللجوء إليها. فقد قال جل شأنه (رؤيا) وهو يقصد تلك الكلمة.

وقول القرطبى: «قد يقال لرؤية العين رؤيا» قد يكون إشارة إلى أمر آخر غير ما أراده القرطبى، وغير ما أراده علماء اللغة، أمر يتمتع بخصوصية لا تجد لها مثيلاً فى حياة الإنسان. وهى ما سوف أتعرّض إليه لاحقاً، إن شاء الله، عند الحديث عن طبيعة الإسراء المقترحة.

٥ - وعلّق القرطبى، محاولاً إثبات فكرة الإسراء الجسدى المتيقّظ، فقال:

أ - (وليس فى الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة).

ويقصد بالاستحالة هنا كون الإسراء بالجسد مستحيلاً على الله تعالى وقد ثَبَتَ فى العقيدة أنّ الله تعالى لا يعجزه شىء. ومع ذلك فلا يليق بنا أنّ نسلِّم بالفكرة على علاتها؛ لأن القدرة الإلهية ليست قدرة عشوائية؛ فالعشوائية لا تكون إلا من ذات عشوائية.

بمعنى أن القدرة الإلهيّة قائمة على قوانين ثابتة قدّرها رب العالمين، فهو المهندس الأعظم، الذى خلق الحياة بميزان، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقال فى كتابه الكريم:

﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ [أى فى الأرض] [الحجر : ١٩].

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن : ٧].

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٩].

فهؤلاء الذين تعلقوا بأنّ فكرة الاستحالة لا تليق بالذات الإلهيَّة؛ ليثبتوا من خلالها أن الإسراء كان بالجسد وهو فى حال اليقظة، لا أراهم بذلك يُبْعدون فكرة أنّ الإسراء كان بالروح، فالذى لا يستحيل على قدرته وتقديره أن يجعل الجسد البشرى يخترق كل تلك الحجب والمسافات فى غمضة عين، أيضاً لا يستحيل عليه أنْ يجعل الروح تخترق العديد من حجب العلم الإلهى فى الأرض وفى السماء.

ب- (ولو كان مناماً لقال بروح عبده، ولم يقلْ بعبده).

لقد تعلّق قوله (بعبده) بالفعل (أسْرى)، وهذا شكل من أشكال إسناد الكلمة إلى أختها فى اللغة العربيَّة، وهذا الرأى الذى احتجّ به القرطبى يصطدم مع قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر : ٤٢].

إن النفس البشريَّة تغادر الإنسان عند نومه وعند وفاته، فتستوفى ما لها من بقاء على الأرض، فيقبض جلَّ شأنه تلك التى قضى عليها الموت، ويرسل الأخرى؛ لتستكمل مدّة بقائها على الأرض.

تلاحظون أن الفعلين (يمسك، ويرسل) كان وقوعهما على النفس، التى هى ذات أخرى غير خلق ذات الجسد. بمعنى أنّ الخطاب قد أتى إلى الروح فقط بعيداً عن الجسد، على اعتبار أنّ الروح ذات مستقلّة لها حدودها وأبعادها، بل إن الخطاب للإنسان أن لا معنى له إذا ما كانت الروح منفصلةً عن الجسد؛ لأن إدراك الإنسان وإحساسه مرهونان بوجود الروح، ما يعتبر دليلاً ومؤشراً على أن الإنسان روح لاجسد، كما قال الدكتور رؤوف عبيد فى كتابه (الإنسان روح لا جسد).

فإذا ما كان الإسراء بالروح، كما قال البعض، فإنّه لا يتعارض مع أنْ تذكر الروح بكلمة (عبد).

٦ - أما قول أم المؤمنين عائشة بنت الصّدّيق «إنما أُسرى بنفس رسول اللهﷺ» فمن شأنه أنْ يؤكد القول بأن الإسراء كان بالروح فقط. فانبرى عدد من الأئمة والعلماء لإسقاط دلالته، فلم يجدوا فى سند الحديث من يتهمونه بالضعف، فلجأوا إلى مستندٍ واهٍ، وهو قولهم (بأنها كانت صغيرة لم تشاهد، ولا حدَّثت عن النبى).

ولكن حجَّتهم مردودة؛ لأنهم يفترضون بهذا القول أنها، حتى بعد زواجها من رسول الله، لم تسأله صلّى الله عليه وسلّم عن الإسراء. فالصغير الذى لم يشاهد، ولم يحدّث عن رسول الله، يصبح كبيراً؛ ليسأل، ويُحدِّث ويشاهد.

فإذا ما كان الحديث ثابتاً عن أمّ المؤمنين، فهل نقول : إنها تَقَوّلَتْ على رسول الله؟ حاشاها أنْ تقولَ ذلك.

فلا يبق أمامنا إذن إلا القول بأنّ الكلمات المنسوبة إلى أم المؤمنين موضوعة، خصوصاً إذا نظرنا إلى قول ابن عباس، الذى ورد فى صحيح البخارى ولدى الترمذى فى تأويل قوله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ**﴾ هى رؤيا عين أُريها النبى ﷺ ليلة أُسْرى به إلى بيْتِ المقدس.

إن عائشة أم المؤمنين وابن عباس رضى الله عنهما، لم يُورد أىٌّ منهما نصّاً ثابتاً عن رسول الله ﷺ فى شأن طبيعة الإسراء به. وما الكلمات التى نُقلت عنهما، إلا إخباراً عنهما، استند على فهمهما، ورؤية كلّ منهما لفكرة الإسراء.

فكان قولهما اجتهاداً منهما، ولذلك لا أجد مسوِّغاً للإعراض عن اجتهاد أمّ المؤمنين. إلا فى حدود الشرع والعقل والمنطق.

٧ - الرؤى الاختزالية رؤى روحيّة، وأقصد بالرؤى الاختزالية، الرؤى الرمزية التى يراها النائم فى نومه. ولا يمكن لهذه الرؤى أنْ تحدث فى عالم الواقع، (ومن ثمَّ تدلُّ على مساحةٍ كبيرةٍ من واقع الإنسان).

فقط الرؤى الروحيَّة هى التى تستطيع أن تختزل فى زمنها القصير مساحات كبيرة من الزمان والمكان.. ومن بين هذه الرؤى التى وردت فى روايات حادثة الإسراء.

أ - ما ورد فى الصحيحين.

١ - إناء اللبن.

٢ - إناء الخمر.

ب- ما ورد فى غير الصحيحين.

١ - داعى اليهود.

٢ - داعى النصارى.

٣ - داعية الدنيا.

٤ - رجال لهم مشافر كمشافر الإبل، فى أيديهم قطع من نار كالأفهار، يقذفونها فى أفواههم، فتخرج من أدبارهم.

٥ - رجالٌ بين أيديهم لحم سمين طيّب إلى جانبه غثٌّ منتن، يأكلون من الغثّ، ويتركون السمين الطيب.

٦ - نساء معلقات بثديهن.

ولقد سَبَق وأن تعرَّضت لنقاش النقاط الثلاث الأولى الواردة فى غير الصحيحين، وهو نقاش من شأنه الطعن فى صحّة تلك الروايات، إلا إذا تم إدراجها فى إطار الرؤى الروحيَّة، فإنها، إذ ذاك، قد تكون مقبولة على أنها رؤى منامية رأتها روح رسول الله عندما أُسْرى بها من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

وربما يكون الأمر قد اختلط على بعض الرواة، فأدرج الرؤى المناميَّة فى رواية الإسراء والمعراج. ومن ذلك الرؤيا الآتية، والتى رواها لنا البخارى فى صحيحه عن رسول الله ﷺ:

«عن سَمُرةَ بن جُنْدب رضي الله عنه قال: « كان النبى ﷺ إذا صلّى صلاةً أقبل علينا بوجهه. فقال: «من رأى منكم الليلة رؤيا» قال: فإن رأى أحدٌ، قصّها،

فيقول: ما شاء الله. . فسألنا يوماً، فقال: «هل رأى أحد منكم رؤيا»، قلنا: لا. قال: «لكنى رأيت الليلة رجلين أتيانى، فأخذا بيدى، فأخرجانى إلى الأرض المقدسة، فإذا رجل جالس، ورجل قائم بيده كَلُّوب[1] من حديد . . قال: إنه يُدْخل ذلك الكلوب فى شدقه حتى يبلغ قفاه، ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك، ويلتئم شدقه هذا، فيعود، فيصنع مثله. قلت : ما هذا؟ قالا: انطلق، فانطلقنا، حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه، ورجل قائم على رأسه بفهر[2] أو صخرة فيشدخ به رأسه، فإذا ضربه تدهده[3] الحجر، فانطلق إليه ليأخذه، فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه، وعاد رأسه كما هو، فعاد إليه فضربه، قلت: من هذا؟ قالا: انطلق، فانطلقنا إلى ثقب مثل التنور[4] أعلاه ضيق، وأسفله واسع، يتوقّد تحته ناراً، فإذا اقترب ارتفعوا، حتى كاد أن يخرجوا، فإذا خمدت رجعوا فيها، وفيها رجال ونساء عراة، فقلت: من هذا؟ قالا: انطلق، فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم. فيه رجل قائم، وعلى وسط النهر، أو على شطّ النهر رجل بين يديه حجارةً، فأقبل الرجل الذى فى النهر، فإذا أراد أن يخرج، رمى الرجل بحجر فى فيه، فرده حيث كان، وجعل كلما جاء ليخرج رمى فى فيه بحجر، فيرجع كما كان، فقلت: ما هذا؟ قالا: انطلق، فانطلقنا حتى انتهينا إلى روضةٍ خضراء، فيها شجرة عظيمة، وفى أصلها شيخٌ وصِبْيَان، وإذا رجل قريب من الشجرة، بين يديه نار يوقدها، فصعدا بى فى الشجرة وأدخلانى داراً، لم أر قطُّ أحسن منها، فيها رجال وشيوخ، وشباب ونساء وصبيان، ثم أخرجانى منها، فصعدا بى الشجرة، فأدخلانى داراً هى أحسن وأفضل، فيها شيوخ وشباب. قلت: طوفتمانى الليلة، فأخبرانى عمَّا رأيت. قالا: نعم. أما الذى رأيته يُشقُّ شدقه فكذّاب، يحدِّث بالكذبة فتُحْمل عنه، حتى تبلغ الآفاق، فيُصنْع به إلى يوم القيامة. ، والذى رأيته

---

(١)الكلوب: حديدة معكوفة الرأس يعلق بها الجسم. .

(٢) الفهر : حجر قدر ما يملأ الكف.

(٣) تدهده : تدحرج.

(٤) التنّور: الكانون، أو الفرن.

يُشْدخُ رأسه، فرجلٌ علّمه الله القرآن، فنام عنه بالليل، ولم يعملْ فيه بالنهار، يُفْعل به إلى يوم القيامة، والذى رأيته فى الثقب فهم الزناة، والذى رأيته فى النهر آكلوا الربا، والشيخ فى أصل الشجرة إبراهيم عليه السلام ، والصبيان حوله فأولاد الناس، والذى يوقد النار مالك خازن النار، والدار الأولى التى دخلت دار عامة المؤمنين، وأما هذه الدار فدار الشهداء، وأنا جبريل، وهذا ميكائيل، فارفع رأسك، فرفعت رأسى، فإذا فوقى مثل السحاب، قالا: ذاك منزلك: قلت: دعانى أدخلْ منزلى. قالا: إنَّه بقيِ لك عمرٌ لم تستكمله، فلو استكملْتَ أتيت منزلك» [رواه البخارى فى كتاب الجنائز].

وهى كما ترون رؤى رمزية لا صلة لها بالواقع؛ لأنها رؤى مناميَّة، ولا يليق أن نجعلها من رؤى رسول الله فى رحلة الإسراء والمعراج.

الإسْرَاءُ

(رُؤْيةٌ اجْتِهَادِيَّة)

لقد تردد القول فى الصفحات السابقة بين فريقين:

١ - فريق يقول بأن الإسراء كان بالجسد والروح، وفى حالة اليقظة، وكان لهم من الأدلة والبراهين ما يرجّح قولهم.

٢ - وفريق يقول بأن الإسراء كان بالروح فقط، ورسول الله نائم فى فراشه. وكان لهؤلاء، أيضاً، من الأدلّة ما يرجّحون به قولهم. وفى ذات الوقت، حاولوا، مثلما فعل الفريق الأول، نقض الأدلّة المعارضة لقولهم.

وليس لنا، كمسلمين، رفض هذا أو ذاك؛ لأنه لا وجود للنص الصريح الذى تنتهى عنده كل أشكال الخلاف. وكنت قد تعرضت لنقاش أدلة الفريقين، معتمداً على المنهج اللغوى والدينى والفكرى، نقاشا من شأنه أن ينقض رأى كل فريق من الفريقين المذكورين. وفى ذات الوقت ستلاحظون أن ذلك النقاش من شأنه أنْ يدعم رأى الفريقين، ولكن من وجه آخر، غير الوجهين المذكورين. وهو مضمون وفحوى رؤيتنا لإسراء رسول الله ﷺ.

إن القارئ لكتاب الإسراء والمعراج، يلاحظ أننى تركت بداية الحديث بدون تحليل، تاركاً ذلك إلى موضع آخر يليق فيه الاسترسال حول ما فى هذه البداية من إيحاءات، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالرؤية التى أجدها لإسراء رسول الله ﷺ، وهذا هو الموضع:

لقد جاء فى بداية حديث الإسراء: « بينما أنا عند البيت بين النائم واليقظان».

وفيها يخبرنا رسول الله أنه كان فى حالة تنتفى عن النائم وتنتفى عن اليقظان، وتتعلق بهما فى آنٍ واحد. ولنناقش الأمر:

إذا كان الإنسان نائماً، قلنا فيه: إنه نائم.

وإذا كان متيقظاً، قلنا فيه: إنه يقظان.

فهل تستطيعون أنْ تدركوا معنى قوله ﷺ: «أنا بين النائم واليقظان»؟

وإذا أدركتموه، فماذا تسمّونه؟ هل تسمونه نائماً؟ أم تسمّونه يقظان؟ بالطبع لاهذا ولا ذاك. ولو سألنا العلماء فى ذلك لقالوا:

١ - الفترة النعاسيَّة أو (الغسقيّة) هى الفترة الزمنية التى تقع بين حالة اليقظة قبيل النوم، وبين وقوع النوم فعليّا. ولذلك فهى حالة وسطى بين الحالتين من حيث درجة الوعى، ومن حيث النشاطات العقليّة والفيزيولوچية، والتى تميّز حالتى اليقظة والنوم.

٢ - وهذه الفترة النعاسيّة تحدث عادة فى أوّل النوم، غير أن لها أن تحدث فى نهايته، وعندها تفصل بين النوم وبين الاستيقاظ منه.

٣ - ومن الناس من يغطّ فى النوم بسرعة، وبدون فاصل زمنى بين يقظته ونومه، غير أن آخرين يبطئون فى الوقوع فى النوم، ولهذا فإن فترة النعاس عندهم هى أطول زمناً، وأكثر وضوحاً.

٤ - إن هذه الفترة النعاسية غير خالية من الأحلام التى اصطلح على تسميتها بالأحلام النعاسية أو أحلام الغفوة ولكن طبيعة هذه الأحلام تختلف عن طبيعة أحلام النوم المألوفة، وعن طبيعة أحلام اليقظة.

٥ - وفى رأى سلبيريرSilberer أنّ الإلهام يأتى للكثيرين من المبدعين فى مثل هذه الحالات من الغفوة. ومن الأمثلة على ذلك:

أ - حلم غفوة لعالم الرياضيات المشهور بوانكريه Poincare، الذى توصّل فيه إلى حل مشكلة رياضية هامّة، والتى عُرِفتْ بالنظرية الفوحسيَّة Fuchsian.

ب- وحلم العالم أوتولوى Loewi، الذى استطاع أنْ يحلّ معضلة علميَّة هامة بدون القيام بجهد واع، وتتعلق المعضلة بالكيفية التى تنتقل فيها الإثارات العصبيَّة من خليَّة إلى أخرى، وهو اكتشاف من أهم الاكتشافات العلميَّة فى هذا العصر[1].

والأمثلة فى هذا الباب عديدة.

وبعد،

إن النائم لا يكون نائماً إلا إذا دخل فى المرحلة الأولى من مراحل النوم الأربعة، والتى تنتهى بمرحلة النوم العميق. فإذا ما دخل الإنسان فى المرحلة الأولى، فإنه يكون قد استوفى جميع حالات النائم الغفليّة والفيزيولوچيَّة؛ لينتقل العقل من حالة الوعى إلى حالة اللاوعى.

وأما اليقظان فإنه فى حالة يقظته يكون فى حالة الوعى التامَّة، حيث تنحسر علاقته باللاوعى أو العقل الباطن انحساراً كبيراً.

فأما إذا كان الإنسان بين النوم واليقظة، فإنه يجمع بين الحالتين، حيث لايكون محصوراً فى واحدة منهما دون الأخرى. وهذا من شأنه أن يشير إلى أن الصلة بين الروح والجسد فى تلك الحالة أسمى وأرفع منها فى حالة اليقظة أو فى حالة النوم.

ومن المسلّم به أنّ الصلة بين الجسد والروح لا تنعدم فى اليقظة ولا فى المنام. ففى اليقظة تكون الروح قائمة فى الجسد، وفى النوم تخرج منه، ولكنها تبقى على اتصال به. كما قال الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه: « تخرج الروح عند النوم ويبقى شعاعها فى الجسد، فبذلك يرى الرؤيا، فإذا انتبه من النوم عاد الروح إلى جسده بأسرع من لحظة، وما رأتْ نفس النائم فى السماء فهى الرؤيا الصادقة»[2].

ولكن وجود الإنسان فى حالة هى بين اليقظة والنوم، ينفى عنه صفة النائم، وينفى عنه كذلك صفة اليقظان. ولكنه فى ذات الوقت يأخذ من كل حالة بنصيب.

---

(١) باب النوم وباب الأحلام، د. على كمال، ص ٤٨٧، ٤٩٠.

(٢) تفسير النسفى، الجزء الرابع، ص ٥٩.

فما معنى أن يكون رسول الله ﷺ بين اليقظة والنوم؟

إنها تشير إلى أن رؤى الإسراء والمعراج رؤى روحيَّة، بدون أنْ تكون بعيدة عن الجسد. فقد كان الجسد حاضراً أكثر من حضوره لدى النائم؛ تحقيقا لكرامة جسد رسول الله ﷺ، الذى كان مؤهلاً لقدرٍ أكبر من المتابعة الجسدية للرؤىٰ الروحية، وكأن جسده ﷺ قد تجرّد من العديد من الظواهر الماديَّة، ليصبح أكثر قرباً من الطبيعة الروحانية، والتى يشير إليها ما ورد فى متن الحديث:

«ثم غسل البطن بماء زمزم، ثمّ ملئ حكمة وإيماناً».

وها هو رسول الله ﷺ يقول فى موضع آخر:

«اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» [رواه الترمذى].

فلكى يتمكن المسلم من أن يقف على بعض الرؤى الكشفية، لابد له من التخلّص من الكثير من العوالق الجسدية، أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ فى قوله: « إن العبد إذا ارتكب خطيئة نَكَتَتْ فى قلبه نُكْتَةً سوداء فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الرّان»

[رواه الترمذى وابن ماجه]

فكلما كان الجسد طاهراً نقياً من الذنوب، كانت الروح أكثر قدرة على ممارسة فعالياتها من خلال ذلك الجسد وهو فى حالة اليقظة، يشهد بذلك حديث (فراسة المؤمن) المذكور قبل قليل.

فما بالك برسول الله الذى كان فى حالة يقظته روحاً تسعى على قدمين، مستدلّين على ذلك بقدر ما لديه من علم ورؤى، يعجز الجسد المادى عن الوقوف عليها، أو حتى مكابدة العلم بها، يؤكد ذلك قوله ﷺ: « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» [رواه البخارى]. إذاً. فالأمر يحتاج إلى حالة أعلى من النقاء والطهارة، حققها جبريل عليه السلام عندما جاء بطست ملئ حكمة وإيماناً؛ ليشق

جوف رسول الله، ومن ثمّ ليغسله بماء زمزم؛ لكى يُفْرِغَ فيه تلك الحكمة وذلك الإيمان، حتى يصبح أطهر وأسمى وأكثر تأهيلاً لمشاركة الروح فيما هى بصدد القيام به.

ولذلك كله أقول:

إن الإسراء كان برسول الله جسداً وروحاً، ولكن الجسد لم يكن فى حالته المادية المعهودة لدى بنى البشر، فقد جرِّده جل شأنه من الحجب المادية (القوانين الطبيعية) التى تحكم المادة على هذه الأرض، ليغدو أكثر شفافية وانطلاقاً، بدون أن يفقد ما يتمتع به من قدرات من شأنها أن تحقق لرسول الله الرؤية الممكنة للعين، والتى أشار إليها جل شأنه فى قوله: ﴿ **مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ** ﴾ [**النجم**: ١٧].

فللجسد رؤيته، وللروح رؤيتها، أما رسول الله، فقد أصبح فى ذات ثالثة، تفرّد بها من دون الخلق أجمعين، وهى الذات التى تتقلّص فيها الفوارق بين الروح والجسد؛ ليقترب الجسد بذلك من طبيعة الروح، مع احتفاظه ببعض الخصائص التى يتميّز بها.

الحامل والمحمول:

وقد يساهم فى إيضاح رؤيتنا للإسراء والمعراج، الحديث عن الجسد والروح والبحث فى أيهما يكون الحامل، وأيهما يكون المحمول.

إن الإنسان؛ فى حال وجوده على الأرض، لا يمكن أن يتفاعل مع الموجودات إلا بوجود الروح بين جنبيه، فإذا ما خرجت الروح منه مات، وانتهت فعالياته.

ولأن النشاط البشرى على هذه الأرض نشاط مادّى، ليس له أن يتمّ إلا بوجود الروح، فإن الحامل هو الجسد والمحمول الذى يحمله هو الروح.

ولكن قد تنعكس الآية، فتصبح الروح هى الحامل، ويصبح الجسد هو المحمول الذى تتقدم فعالياته مع الموجودات بحكم أن الروح هى التى تتعامل معها من خلال منظور خفىّ، يدعم ذلك قوله ﷺ: « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله».

أو قوله جل شأنه فى حديث قدسى: « ما تقرّب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضت عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها. . ».

وخلاصة القول فى ذلك:

(إن الروح عندما تتجلّى من خلال الطاعات، والقُرْب من الله تعالى فإنها تصبح حاملة للجسد، ليغدو الجسد فى ظل ذلك قادراً على اختراق العديد من القوانين المادية التى تحكمه. . . وقد تفرّد رسول الله ﷺ من دون الخلق جميعاً بأن كان الأقرب إلى رب العالمين، وعندما أراد جل شأنه الإسراء به، حقَّق له المزيد من الطهارة والحكمة والإيمان.

١ - غسل جوف البطن بماء زمزم.

٢ - ملء الجوف بمزيد من الحكمة والإيمان، أنزلهما جل شأنه مع جبريل عليه السلام ليصبح الجسد أكثر تَجلياً وشفافية، تمكنه من التحرّر من كل القوانين المادية التى تحكم الجسد المادى، ومن ثمّ ليغدو فى فعالياته مقارباً أو مشابهاً لفعاليات الروح.

المعراج

بعد أن وصل رسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى عُرج به إلى السماء، فقال: « فانطلقْتُ مَعَ جبريلَ حتَّى أَتَينا السَّماءَ الدُّنيا. قيلَ: مَنْ هَذا؟ قالَ: جبريلُ. قيلَ: منْ مَعَك؟ قالَ: مُحمَّد. قيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إليه؟ قالَ: نَعَمْ. قيلَ: مَرْحَباً به، ولَنِعْمَ المجيءُ جَاء، فأتيتُ على آدمَ، فسلَّمتُ عليه، فقالَ: مَرْحبًا بِكَ مِنْ ابْنٍ ونبىّ.

فَأَتينا السَّماء الثانية، قيلَ: مَنْ هذا؟ قالَ: جبريلُ. قيلَ: مَنْ مَعَك؟ قالَ: مُحَمَّد. قيلَ: أُرْسِلَ إليه؟ قالَ: نَعَمْ. قيلَ: مَرْحَباً به، ونَعْمَ المجيءُ جَاء، فأتَيْتُ على عيسى ويحيى، فقالاً: مرحباً بكَ مِنْ أخٍ ونبىّ.

فَأَتينا السَّماء الثالثة، قيلَ: مَنْ هذا؟ قالَ: جبريلُ. قيلَ: مَنْ مَعَك؟ قالَ: مُحَّمد. قيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إليه؟ قالَ: نعَمْ. قيلَ: مَرْحَباً به، ولَنِعْمَ المجئُ جاء، فأَتَيْتُ على يُوسُفَ فسلَّمتُ عَلَيه، قَالَ: مَرْحَباً بكَ مِن أخٍ ونبىّ.

فَأَتينا السَّماء الرَّابعة، قيلَ: مَنْ هَذا؟ قَالَ: جبْريلُ. قيلَ: مَنْ مَعَك؟ قيلَ: مُحمَّد. قيلَ: وَقَدْ أُرسلَ إليه؟ قالَ: نعَمْ. قيلَ: مَرْحَباً به، ولَنِعْمَ المجئُ جَاء، فأَتَيْتُ على إدْرِيس، فسلَّمتُ عليهِ، فقال: مَرْحَباً بِكَ مِنْ أخٍ ونبىّ.

فَأَتينا السَّماء الخامسة، قيلَ: مَنْ هذا؟ قَالَ: جبْريلُ. قيلَ: مَنْ مَعَك؟ قيلَ: مُحَّمد. قيلَ: وَقَدْ أُرسلَ إِلَيه؟ قالَ: نَعَمْ. قيلَ: مَرْحَباً به، ولَنَعْمَ المجئُ جَاء، فأَتَيْنا على هارون، فسلَّمتُ عليه، فقال: مَرْحَباً بِكَ مِنْ أخٍ ونبىّ.

فَأَتينا السَّماء السادسة، قيلَ: مَنْ هذا؟ قَيلَ: جبْريلُ. قيلَ: ومَنْ مَعَك؟ قيلَ: مُحمَّد. قيلَ: وَقَدْ أُرسلَ إليه؟ مَرْحَباً به، ولَنعْمَ المَجئُ جَاء، فأَتَيْتُ على موسى فسلَّمتُ عَلَيه، فقال: مَرْحَباً بكَ مِنْ أخٍ ونبىّ. فلما جَاْوَزْت بكى، فقيل: ما أبْكاك؟ قال: يارِبّ، هذا الغُلامُ الذى بُعث بَعدى، يَدْخُل الجَنَّةَ مِنْ أمَّته أُفْضَلُ ممَّا يدخلُ مِنْ أمّتى.

فَأَتَيْنَا السَّمَاء السابعة، قِيلَ: مَنْ هذا؟ قَيلَ: جبْريلُ. قيلَ: مَنْ مَعَك؟ قِيلَ: مُحَّمد. قيلَ: وَقَدْ أُرسِلَ إلَيه؟ مَرْحَباً به، ولَنِعْمَ المَجئُ جَاء، فأَتَيْتُ على إبراهيم فسلَّمتُ عليه، فقال: مرحباً بكَ مِنْ ابنٍ ونبىّ. فَرُفِعَ لِىَ البَيْتُ المْعَمُورُ، فَسَألتُ جبريلَ، فقالَ: هذا البيتُ المعمورُ يصلِّى فيه كَلَّ يومٍ سَبْعون ألْفَ ملكٍ، إذا خرجوا لَمْ يعودوا إليه آخر ما عليهم.

وَرُفِعَتْ لى سِدْرَةُ المُنْتَهى، فإذا نَبقها[١] كَأَنَّه قِلاَل هَجَر[٢] وَوَرَقُها كأنّه آذانُ الفيول، وفى أصلْهَا أربَعة أنهار، نهران باطنان ونهران ظاهران، فسألتُ جبريلَ: فقالَ: أمَّا الباطنانَ ففى الجنة، وأمّا الظاهران فالنيلُ والفرَاتُ.

---

(١) النبق : حمل شجر السدر، واحدتها نبقة.

(٢) قلال هجر: جمع قُلّة، والمقصود : رؤوس جبال هجر، وهى مدينة قرب يثرب.

ثُمَّ فُرضتْ علىَّ خمسونَ صلاة، فأَقْبلتُ حتَّى جئتُ موسى، فقال: ما صنعتَ؟ قلتُ: فُرِضَتْ علىَّ خمسونَ صلاة. قال: أنا أعلمُ بالنّاسِ منك، عالجتُ بنى إسرائيلَ أشدَّ المعالجة، وإنّ أمّتَك لا تطيقُ، فارجعْ إلى ربك، فَسَلْه، فَرَجَعْتُ، فَسَأَلْتُه، فجعلها أَرْبَعين، ثمَّ مثله ثلاثين، ثم مثله، فجعل عشْرينَ، ثُمَّ مثلهُ فَجَعَلَ عَشْراً، فأتيْتُ موسى، فقالَ مثلَهُ، فَجَعَلَها خَمْساً، فأتيتُ موسى، فقال: ماصنعْتَ؟ قلتُ: جعلها خمساً، فقالَ: مثله. قلت: سلّمتُ بخير، فنُوْدِى : إنىّ قَدْ أَمْضَيتُ فَرِيضتى، وخفَّفتُ عَنْ عبادى، وأَجزِى الْحَسَنَةَ عَشْراً».

[رواه البخارى ومسلم وأحمد]

هذا ما ورد فى كتب الحديث، مع اختلافات بسيطة فيما بينهما، ليس من شأنها أن تمسَّ الحدث نفسه. الذى بالإمكان إدراجه فى عدة محاور:

١ - استئذان جبريل عليه السلام.

٢ - لقاء رسول الله بعدد من الأنبياء فى كل سماء.

٣ - البيت المعمور.

٤ - سدرة المنتهى.

٥ - الأنهار.

٦ - فرض الصلاة.

أولاً : استئذان جبريل عليه السلام :

وهو فى قوله (قيلُ: مَنْ هذا؟ قالَ: جبريلُ. وقيلَ: ومنْ مَعَك؟ قالَ: محُمَّد. قيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إليه؟ قالَ: نَعَمْ..)

فسؤال الملائكة: من هذا؟ دليل على أنهم لا يعلمون هويَّة القادم، وبعد أن عرفوه سألوه عن مرافقه، فصدقوه عندما قال لهم: إنه محمّد. لأنهم لا يمكن أن يكذبوا (الروح الأمين).

وبالنسبة لاستئذان جبريل عليه السلام وردّ الملائكة عليه يوثّقه ويبيّنه قوله تعالى على لسان الجن: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ [الجن: ٨].

والحرس الشديد هم الملائكة الذين أُوْكِلَ إليهم جل شأنه مهمة حفظ السماء من كل من يريد الوصول إليها بدون أمرٍ من الله تعالى. وعندما أتى جبريل عليه السلام، سألوه عن هويّته فأبرزها لهم، ولكنها ليست هوية كتلك الهويات التى يتعامل بها بنو البشر، بل هوية يتداولها الملائكة فيما بينهم، وهى من مكونات الهيئة التى خلقوا بها، والتى لا علم لبنى البشر بها. ولكنهم يعلمون من واقعهم ما يُعتبر شاهداً على سرعة ملاحظة تلك الهويَّة، كخلية النحل التى يكون فيها مئات بل آلاف من النحل، يخرجون ويدخلون إلى الخليّة تحت عين حراس من النحل، يمنعون كل نحلة غريبة من الدخول إلى الخليَّة، بدون أن يكون هناك وقوف أو طابور أو تمحيص، فقد جعل جل شأنه للنحل قدرة على تمييز الروائح، تجعلهم يلتقطون، فى غمضة عين بل وأقرب، كل رائحة غريبة، فينقضون عليها، لمنعها من الدخول.

وكذلك الملائكة عباد الرحمن، يعرفون بعضهم البعض من خلال ما قدّره جل شأنه لهم من صفات وقدرات.

وبعد أن علم حراس السماء الأشدّاء بهويّة القادم، سألوه عن رفيقه، فقال لهم: إنه محمد؛ وكان ذكر الاسم كافياً لمعرفته ﷺ لأنهم يعلمون أن نبياً سيرسل فى آخر الزمان، اسمه محمد، فسألوا جبريل: وقد أرسل إليه؟ إشارة إلى أنهم لا يعلمون بزمن إرساله. ولكن معرفتهم بجبريل (الروح الأمين) كانت كافية لإيمانهم بصدق ما قال، فقالوا: مرحبا به، ولنعم المجيء جاء.

ثانياً: لقاء رسول الله ﷺ بعدد من الأنبياء:

فى السماء الأولى التقى بأبيه وأبينا آدم.

وفى السماء الثانية التقى بعيسى ويحيى.

وفى السماء الثالثة التقى بيوسف.

وفى السماء الرابعة التقى بإدريس.

وفى السماء الخامسة التقى بهارون.

وفى السماء السابعة التقى بإبراهيم.

على نبينا وعليهم جميعاً الصلاة والسلام.

وقد وثق رسول الله ﷺ تلك الرؤية بذكر أوصاف بعض من هؤلاء الأنبياء.

فجاء فى صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«عُرض علىَّ الأنبياء، فإذا موسى ضرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة، ورأيت إبراهيم صلوات الله عليه، فإذا أقرب من رأيت به شبهاً صاحبكم، يعنى نفسه، ورأيت جبريل عليه السلام ، فإذا أقرب من رأيت به شبهاً دحية».

وهنا لنا أن نتساءل: هل كانت رؤية الأنبياء رؤية عين أم رؤيا منام؟

الذين قالوا: إن الإسراء كان بجسد رسول الله يقرّون أنه ﷺ قد رأى هؤلاء الأنبياء بعين رأسه.

ولكن أين هم هؤلاء الأنبياء؟

إنهم مدفونون فى التراب، إبراهيم ويحيى وموسى وهارون ويوسف، ومن قبلهم جميعاً أبونا آدم عليهم السلام جميعاً. أما عيسى فقد رفعه الله إليه وكذلك إدريس.

ومما جاء عنه ﷺ فى شأن موسى عليه السلام .

« فلو كنْتُ ثمّ لأريتكم قبره عند الكثيب الأحمر» [رواه الشيخان]

فإذا كان موسى عليه السلام مدفوناً فى ذلك القبر، فمن هو ذاك الذى التقاه رسول الله فى السماء السادسة؟

الإجابة قد تأتى على صورتين، ولابأس من عرضهما، ومناقشة كل منهما:

١ - إذا كان ذلك الذى رآه رسول الله ﷺ فى السماء جسداً، فلن يكون إلا جسداً بديلاً، شبيهاً بالجسد الذى كان فى الدنيا؛ لأنّ الجسد الأول مدفون فى التراب.

٢ - أن تكون الذوات التى رآها رسول الله فى السماء ذوات روحانية تحمل نفس هيئة الجسد المادى.

ولست أريد هنا التفصيل فى ذلك الباب، لأنه باب واسع، من شأن الاستغراق فيه أن يبعدنا قليلاً عن المسار الذى نحن بصدده. ونكتفى فقط بقوله ﷺ: «أَرْوَاحُ الشهّداءِ فى طيرٍ خُضْرٍ تَعْلقُ مِنْ ثمرِ الجَنَّةِ أو شجرِ الجنَّة» [رواه الترمذى وأحمد].

وهو حديث جاء تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

فالذى يقتل فى سبيل الله ليس ميتاً، بل هو حىّ، ولا مجال هنا لتأويل ذلك المعنى، فالنص صريح على أنه حىٌّ؛ كرامة وفضلاً من الله تعالى. فإذا ما كان الشهداء أحياء عند ربهم، فهل من المعقول، عقلاً ونقلاً أن ننفى صفة الحياة تلك عمّن هم أكرم عند الله من الشهداء.. أعنى الأنبياء؟

فإذا كانت ذوات الأنبياء التى مرّ عليها رسول الله فى السماء ذوات روحانية، فكيف تسنى له أن يراهم ويدركهم بجسده المادى؟

١ - إن الذى يمنعنا من رؤية الذوات المخالفة للذوات المادية هو الحجب (القوانين) التى يخضع لها الجسد المادى.

ولإيضاح ذلك تأملوا معى قوله جل شأنه: ﴿ **قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا** ﴾ [الأعراف: ١٤٣]

فلماذا اندك الجبل؟ ولم يحترق موسى عليه السلام عندما تجلّى ربّ العالمين للجبل؟

لأن الحجب التى أُزيلت ، فحققت التجلّى أمام الجبل، كانت تلك القوانين الطبيعية التى تحكم ذات الجبل، وتحفظه من الاحتراق بنور الله تعالى. وقد كان موسى عليه السلام فى نفس الموقف، ولكنه لم يحترق من فيض التجلّى الإلهى، لأن القوانين التى خُلِق بها ظلّت باقية، فحفظته مما حدث للجبل، الذى فقد حجبه الخاصة.

فالجن والملائكة موجودون، والذى يمنعنا من رؤيتهم تلك القوانين التى خلق من خلالها سمعنا وبصرنا. ولو أننا تجرّدنا من تلك القوانين (الحجب) لرأيناهم رأى العين، ولرأينا كذلك الأرواح.

٢ - ويقودنا الحديث السابق إلى قوله تعالى: ﴿ **فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ** ﴾ [ق: ٢٢].

فذلك الغطاء الذى كشفه رب العالمين عن رسول الله ﷺ هو (الحجب) التى تقف حاجزاً أمام الإنسان يمنعه من رؤية ما وراء المادة.

(بصرك حديد) أى رؤيتك غدت بعيدة ودقيقة.

فالعين مخلوقة بقانون، يجعلها لا ترى ما وراء الحائط، ولا تتجاوز فى رؤيتها مدى ما تحدّه القوانين التى خلقت بها. وكشف الغطاء هنا هو إزالة تلك القوانين؛ ليصبح البصر قادراً على رؤية ما لا يُرى، ومن ذلك رؤية جبريل عليه السلام على صورته الحقيقية، وغير ذلك ما ورد ذكره فى السنة النبوية المطهرّة.

٣ - ثم إن ابتداء حديث الإسراء بقوله ﷺ: «وأنا بين النّائم واليقظان» يضع رسول الله فى هيئة تجعله قادراً على اختراق كل الحجب المفروضة أمام الوعى المادى الصّرف ؛ ليصبح الجسد فى ظلّها قادراً على ممارسة العديد من الفعاليات التى تنسب إلى الروح، وكأنه بذلك يتحرَّر من القيود الماديَّة، ليكون أكثر قربا من الطبيعة الروحانية.

ثالثاً : البيت المعمور :

«فرفع لى البيت المعمور، فسألت جبريل، فقال: هذا البيت المعمور، يصلّى فيه كل يوم سبعون ألف ملك. . .».

وكون هذا البيت المعمور فى السماء السابعة، إشارة إلى أن له من المكانة والشرف ما يجعله فى ذلك الموضع، وليس دونه، ولذلك أقسم به جل شأنه: ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾

[الطور: ١-٤]

قال علىّ وابن عباس وغيرهما: هو بيت فى السماء حيال الكعبة، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم يخرجون منه، فلا يعودون إليه[١].

رابعاً: سدرة المنتهى:

السدر هو شجر النبق. وجاء وصف رسول الله مخبراً عن عِظمها، وقال ﷺ فى موضع آخر:

(إن فى الجنة لشجرة، يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها) [رواه البخارى]، وزاد الترمذى (. . . فاقرأوا إن شئتم (وظل ممدود وماء مسكوب).

خامساً: الأنهار:

فى أصل سدرة المنتهى أربعة أنهار، نهران باطنان فى الجنة، ونهران ظاهران، هما النيل والفرات.

وهنا نجد ما يحتّم علينا المزيد من الحديث والتفصيل، حول كون نهرى النيل والفرات ينبعان من أصل سدرة المنتهى، التى ذكر أنها فى السماء السابعة، فى حين أننا نراهما أمامنا على هذه الأرض. إذ كيف ينبع الماء من السماء السابعة، فيجرى أمام أعيننا على هذه الأرض؟!!

١ - قال ﷺ: «السموات والأرض فى عرش الرحمن كحلقة فى فلاة».

والفلاة هى الصحراء.

ومن شأن هذا الحديث أن يقرّب إلى الأذهان الصورة التى يبدو عليها الكون

---

(١)القرطبى: الجزء السابع عشر، ص٥٩.

أمام الذات الإلهيَّة. فهذا الكون المهول الذى تقاس المسافات فيه بالسنوات الضوئية، ما هو إلا جرم تافه صغير فى عرش رب العالمين. كحلقة صغيرة ملقاة فى صحراء مترامية الأطراف..

٢ - وعلى ذلك نعتمد فى قولنا: إن السموات والأرض ما هما إلا كون واحد، متصّل ببعضه البعض، ولقد أثبت العلم الحديث أن الكون لا توجد فيه فراغات، لأن الفراغ يعنى الانفصال بين الأجزاء، وإذا كان هناك انفصال لما استطاعت الإشارات الاتصالية أن تنتقل فى أرجاء هذا الكون.

وقد يقول قائل: فماذا تسمّى هذا الفضاء الموجود فى الكون؟

فأقول: إن المادة لها ثلاث حالات: صلبة، وسائلة، وغازية، فإذا ما نظرت فى غرفتك الخالية من الأثاث، فلا تظنّ أنها فارغة، لأنها مليئة فى كل جزء من أجزائها بالهواء، الذى هو شكل من أشكال المادة. وكذلك المسافات بين الكواكب والنجوم، مليئة بالمادة الغازية أو الإشعاعية أو غير ذلك مما تجدونه مفصلاً فى الكتب العلمية.

فما الذى يجعل رسالة لاسلكية، ترسلها المحطات الأرضية إلى الفضاء الخارجى، تنتقل من كوكب إلى آخر، ومن فضاء إلى آخر، إذا لم يكن هناك وسيط مادى تنتقل من خلاله؛ لتصل إلى تلك المجاهل؟

فالسموات والأرض كتلة واحدة، تأخذ أشكالاً عديدة، وبإمكان الإنسان أن يتحرك وينتقل خلال السموات والأرض ولكن بشرط أن يتحرّر من القوانين الطبيعية التى تحكمه، مثلما حدث مع محمد ﷺ.

٣ - وأن تكون السموات والأرض كوناً واحداً، متصلاً ببعضه البعض، يفترض أن للمخلوق، أياً كان، أنْ يتجانس معه، وأن يتخلله، فللإنسان أن يتجول فى الأرض حقيقة، وله أن يتجول فى الفضاء الخارجى وفى الكواكب الأخرى افتراضاً، ولكنّ توفرّه على قوانين معينة، جعله محكوماً بوسط معيّن، له من المواصفات ما يجعله ملائماً لحركة الإنسان وقد قال جل شأنه فى ذلك:

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

ولو أراد جل شأنه لخلق الإنسان بمواصفات أخرى، لا تجعل الأرض فقط هى الذّلول لمعيشته، إنما تجعل الكون كله ذلولاً له. ومع ذلك فقد حاول الإنسان، ومازال يحاول، أن يتجاوز قدراً من هذه القوانين التى تحكم حركته وفعالياته، وذلك عن طريق العقل، الذى ابتكر أجهزةً وآلات تمكّن الجسد المادى من اختراق العديد من القوانين التى تحكم طبيعة خلقه، فصعد إلى القمر وإلى المريخ، واقترب من المشترى واقترب من الشمس. وكلها أمور من المستحيل للإنسان أن يحققها بذاته المجردة.

فالكون واحد متّصل ببعضه البعض، وقد بيَّن لنا جل شأنه ذلك من خلال بعض الظواهر، فالمدّ والجزر الذى نراه فى البحار ناتج عن حالة القمر فى السماء. واخضرار النباتات مرتبط بالشمس وما تبثّه من ضياء ودفء.. إلى غير ذلك من الأمور التى يضيق المجال عن ذكرها.

وخلاصة القول أن هناك ظواهر على الأرض لم يستطع العلماء أن يجدوا لها تفسيراً، وظواهر أخرى تمكّنوا من تفسيرها. فسرّ مثلث برمودا مازال مجهولاً، وماء زمزم لم يستطع العلماء أن يحددوا له منبعاً، وها هو منذ ألف وأربعمائة عام يسقى الحجاج والعمّار، بدون انقطاع أو انحسار.

وقد نستطيع أن نتخلّص من جهلنا بذلك، بأن نلقى هذه الحالة الغريبة فى نطاق قدرة الله تعالى اللامحدودة. ولكننا، و مع ذلك، لا نجد بداً من الإشارة إلى أن القدرة الإلهيَّة ليست قدرة عشوائية، بل هى قدرة هندسيَّة رائعة، تدلّ على عظم قدر الخالق سبحانه. فقد بيَّن لنا العلم الحديث أن هناك أموراً وذواتاً موجودة فى واقعنا، ولكن العين المجرّدة لا تستطيع الوقوف عليها، فالفيروسات والميكروبات لاتراها العين المجرّدة، ولكن ذلك لا يعنى أنها غير موجودة.

وكذلك النيل والفرات، ها هما يلوحان أمام أعيننا فى مصر والعراق، ولكن أصلهما ومنبعهما، كما قال رسول الله، سدرة المنتهى، وهى الجانب الغائب عن

إدراك الإنسان؛ لأنه ينطوى فى إطار قوانين مادية أخرى، لا يستطيع الحس البشرى أن يصل إليها..

ومن بين الشواهد التى وقف عليها المسلمون فى عهد رسول اللهﷺ، والتى أقروا من خلالها بأن الشىء المادى المشاهد قد يكون له منبع ومدد من العالم غير المشاهد، ما رواه الأئمّة عن رسول الله ﷺ: عن علقمة عن عبدالله قال: كنا نعدّ الآيات بركةً، وأنتم تعدونها تخويفاً، كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر، فقلَّ الماء، فقال: « اطلبوا فضلة[1]. فجاءوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده فى الإناء، ثمّ قال: حىَّ على الطهور[2] المبارك، والبركةُ من الله. فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ» [رواه البخارى، والترمذى، والنسائى، والدارمى].

وقد روى الإمام أحمد، وابن ماجه، وغيرهم من رواة الأحاديث، أحاديث أخرى تحمل نفس الفكرة.

وهنا نسأل أنفسنا هذا السؤال: من أين جاء هذا الماء الذى توضَّأ منه الجمع الكثير، وهو فى الأصل ماء قليل؟

يجيب على ذلك أحد رواة الأحاديث الذى روى حديثاً عن قصعة ثريد أُحضرت إلى النبى ﷺ، فأكل القوم منها إلى قريب من الظهر، يأكل منها قوم ثم يقومون، ويجىء قوم آخرون، فسأله رجل: هل كانت تُمَدُّ بطعام؟ قال: أمّا من الأرض فلا، إلا أن تكون كانت تُمدّ من السماء.

وليس لنا فى هذه الحالة إلا القول بأنها كانت تمدّ من السماء، لا من الأرض. وفى هذه الحالة، فإن الماء، وذلك الطعام الذى يراه القوم أمام أعينهم، ويلقونه فى بطونهم كان له مصدر ومنبع آخر، ولكنه غير مرئىّ، وكذلك النيل والفرات منبعهما فى سدرة المنتهى، وما نراه على الأرض ما هو إلا المظهر الدنيوى المحسوس والذى تخبرنا به أعيننا.

---

(١) الفضلة: البقيَّة من الماء.

(٢) الطهور: الماء الطاهر الذى يُتَطهرّ به.

٤ - فمجالات الإدراك البشرى محكومة بقوانين ثابتة، للإنسان أن يتجاوز بعضها، وليس له أن يتجاوز البعض الآخر:

أ - القوانين الخاضعة للتجاوز.

وهى القوانين التى بمقدور الإنسان أن يتجاوزها من خلال التقنيات العلميّة المتمثلة فى الأجهزة والآلات.

فالعين محكومة بقوانين، تحدَّد لها مساحة القدرة على الرؤية، فهناك كائنات دقيقة جداً كالفيروسات والبكتريا، لا تستطيع العين أن تراها. ولكنّ الإنسان، من خلال اختراع الأجهزة المكبّرة، استطاع أن يرى هذه الكائنات، وذلك بتكبيرها إلى الحجم الذى تستطيع العين فيه أن تراه.

ب- أما القوانين التى لا يمكن تجاوزها فهى القوانين الغيبية، التى لا يمكن للإنسان أن يطلع عليها إلا بمشيئة الله تعالى: ﴿**وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ**﴾ [**البقرة**: ٢٥٥].

فإذا ما شاءت القدرة الإلهية لبشرٍ أن يتجاوز هذه القوانين، فإنه سيتجاوزها، ليقف على مدركات غيبية بعينه المجرّدة وأذنه المكشوفة، بعيداً عن كل القوانين الطبيعية التى يعلمها الإنسان فى ذاته وفى باقى الموجودات.

ولو أنه سبحانه كشف عنا بعض الحجب، لاستطعنا أن نرى منبع النيل ومنبع الفرات، وليس هذا فحسب، بل ولرأينا البيت المعمور وسدرة المنتهى.

وفى هذا الإطار جاء قوله تعالى: ﴿**فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**﴾ [**ق**: ٢٢]

فلم يكن ذلك الغطاء سوى الحجب المادية التى تمنعُ الإنسان من اتساع مجال الرؤية، والمقصود بضمير الخطاب فى الآية هو رسول الله فى بعض الأقوال، الذى كان يرى ما لا يراه الآخرون، ومن ذلك على سبيل المثال:

١ - «عُرضت على الجنة والنار آنفاً فى عُرْض هذا الحائط، فلم أر كالخير والشر» [رواه البخارى]

٢ - « . . . يا معشر النساء تصدّقن فإنى رأيتكن أكثر أهل النار»[رواه البخارى].

ومن ذلك أيضاً الرؤى المستقبلية، التى رآها رسول الله ﷺ فأخبر بها:

٣ - « صنفان من أمتى من أهل النار، لم أرهما بعدُ، نساء كاسيات عاريات، مائلات مُميلات، على رؤوسهن أمثال أسنمة الإبل» [رواه أحمد].

وغير ذلك كثير، وهو ما سنوفر له باباً مستقلاً فى حديثنا عن رسول الله ﷺ، ففى الأمثلة المذكورة يخبرنا ﷺ أنه رأى، وكانت رؤيته هذه رؤية عين. . فكيف تسنّى لعين رسول الله أن تتجاوز الحاضر لترى المستقبل كما ترى الحاضر؟ إنه الكشف الذى حققه جل شأنه لرسوله الأعظم، فأزال من خلاله العديد من الحجب (القوانين الطبيعية) عن رسوله، يرى تلك الرؤى الغيبية.

٤ - يقول أحد العارفين:

(لم يكن محمد ﷺ ليلة أسرى به بأقرب إلى الله من يونس بن متى وهو فى بطن الحوت)[1].

وكأنه يقول من خلال تلك الكلمات: إن محمّداً ﷺ لم يُضطر إلى الانتقال من مكان إلى آخر، ليكون أكثر قربا من الله تعالى؛ لأن القرب من الله تعالى ليس قرباً مكانياً، إذْ لو كان كذلك، لكان جل شأنه موجوداً فى مكان بعينه، وأن وجوده فى مكان يختلف عنه فى مكان آخر؛ ولذلك كان ﷺ محتاجاً إلى الانتقال المكان؛ ليكون أكثر قرباً منه سبحانه.

ولكن الثابت فى العقيدة هو أن الله تعالى لا يحدّه مكان ولا زمان، فهو أعظم وأجلّ من أن يحتويه مكان أو زمان، ولذلك كان قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ** ﴾ [**الحديد**: ٤].

أو قوله تعالى، وهو يصور لنا حال الميّت: ﴿ **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ** ﴾ [**الواقعة**: ٨٥].

---

(١) تفسير القرطبى: الجزء السابع عشر. ص ٢٣٧.

وقد اختلف المفسرون فى تفسير تلك المعيَّة وذلك القرب، ولا حاجة لنا فى أن نسوق تلك الاختلافات، إنما يكفينا أن نؤمن بأن هذه المعيَّة وذلك القرب الشديد يفيدان أنه سبحانه ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، بل ويعلم ما يدور فى قراءة نفوسنا علماً مباشراً وبدون واسطة.

﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [القمر: ٢٨٤].

ومن الشواهد الدالة على أن الإنسان لا يحتاج للانتقال المكانى؛ لكى يكون قريباً من الله تعالى، إنما حاجته إلى كشف الحجب التى تحكم الطبيعة البشرية، ليدرك أثر ذلك أنه جل شأنه أقرب إلينا من حبل الوريد، ما كان مع موسى عليه السلام:

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وعندما كشف جل شأنه الحجب عن الجبل، لم يحتمل فيض التجلى الإلهى. فاندك، وأصبح تراباً، ولو كانت حركة التجلى إلهيَّة لاحترق كل شىء مصداقاً لقول رسول الله ﷺ: « إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، حجابه النور، لو كشفه لأحرقتْ سبحان وجهه مدى ما انتهى إليه بصره»

[رواه مسلم وابن ماجه]

فلماذا لم يحترق موسى عندما تجلّى رب العالمين للجبل؟

لأن الحجب التى أُزيلتْ ليستْ حجباً إلهيَّة من شأن إزالتها أن تجعل الجبل يشهد الذات الإلهيّة، بل هى حجب خلقها جل شأنه، وأودعها فى مخلوقاته، فأزالها فى ذلك الموقف عن الجبل، ولم يُزلها عن موسى عليه السلام وبقيَّة الموجودات.

إذن، فلم يكن محمد ﷺ فى حاجة إلى الانتقال المكانى ليكون أقرب إلى الله تعالى، فهو جل شأنه فى كل مكان وفى كل زمان وفوق المكان وفوق الزمان، ولا نحتاج لكى نكون فى حضرته إلا إلى إزالة تلك الحجب التى تمنعنا من أن نشهد حضوره جل شأنه.

٥ - واستناداً إلى الحديث السابق، فإن معراج رسول الله ﷺ لم يكن إلى الله تعالى، إنما كان معراجاً لرؤية ملكوت السموات؛ لأنه يحتاج إلى الانتقال

المكانى، من باب أن رسول الله مخلوق والسموات كذلك مخلوقة، ولا تتحقق العلاقة بينهما إلا من خلال قوانين مكانية وزمانية، شرعها سبحانه وتعالى لمخلوقاته.

وقد أشار جل شأنه إلى أن للمعراج قانوناً، ولكنه محجـوب عن الخلـق، ولـو أراد جل شأنه كشفه لهم لفعل، وهو قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥].

(يَعْرُجُونَ) من عرج يَعْرُج، أى صعد، والمعارج: المصاعد، أى لو صعدوا إلى السماء، وشاهدوا الملكوت والملائكة لأصروا على الكفر[1].

ولا يسُنْدْ الفتحُ إلى شىء إلا إذا كان قابلاً لذلك المعنى، بمعنى أن فى السماء أبواباً، تُفْضى إلى عالم السموات، ولو أن الله تعالى فتح للكافرين باباً من تلك الأبواب؛ ليجدوا الطريق أمامهم سهلة ميسورة إلى السماء، لما صدّقوا ما هم فيه، ولقالوا: إننا مسحورون؛ لعدم قدرتهم على تصديق أنهم يصعدون بأجسادهم المخلوقة بقانون الأرض فى أرجاء السموات.

فالأبواب موجودة، و(المصاعد) التى يصعد عليها الملائكة أيضاً موجودة، ومعراج رسول الله ﷺ كان من تلك الأبواب السماوية؛ ليرى من الآيات ما قدّره الله تعالى.

سادساً: فرض الصّلاة:

بحديث الإسراء والمعراج يثبتُ أنّ الصلاة لم تفرض على رسول الله ﷺ خمساً فى اليوم والليلة إلا وهو فى السماء، وتفرُّد الصّلاة بهذه الخصوصيّة يجعلها متميّزة عن باقى العبادات.

وهذا بالضبط ما أشار إليه ﷺ فى العديد من الأحاديث النبويَّة، فقال:

١ - « إن أول ما يُحاسب به العبد يوم القيامة صلاته، فإن صلُحتْ فقد أفلح ونجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر» [رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه وأحمد].

---

(١) تفسير القرطبى: الجزء العاشر. ص ٨.

٢ - «العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر»

[رواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجه]

٣ - «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد»

[رواه الترمذى وأحمد]

فقد جعل جل شأنه للصلاة قدراً عظيماً فى حياة المرء المسلم وفى تقرير مصيره فى الدنيا والآخرة، فأشار إلى جلالها وقدرها العظيم بأن شرعها على رسوله الأكرم وهو فى السَّماء السَّابعة. ومع ذلك فهناك جانب غفل عنه البعض، وهو مقام رسول الله ﷺ فإذا كان جلال شأن الصّلاة جعلها لا تُشْرع إلا فى السماء السابعة، فهل يُعْقل أنْ يبقى رسول اللَّه على صورته وهيئته الماديّة الصّرفة، وهو بصدد الإقبال على أمرين عظيمين:

١ - الصعود إلى السموات السبع.

٢ - تلقى التشريع من رب العالمين مباشرة بفرضيَّة الصلاة؟

إن المنطق يفترض لرسول الله ﷺ نقاءً من العلائق الدنيويَّة، يؤهّله لأنْ يخترق السموات السبع أولاً، ولأن يخاطب رب العالمين مباشرة، ولأنْ يتلقى أسمى وأرفع العبادات فى الإسلام.

وقد أشار حديث الإسراء والمعراج إلى بعضٍ من هذه الإجراءات، التى أعدّته ﷺ لهذه المرحلة.

١ - قوله فى بداية الحديث (وأنا بين النائم واليقظان).

٢ - غسل جوفه بماء زمزم.

٣ - ملء جوفه بالحكمة والإيمان.

وهى أمور سبق وأن تعرّضت إليها بالشرح والتحليل؛ لندرك من خلالها أن رسول الله ﷺ لم يكن فى أدميته المطلقة، ولم يكن فى روحانيته المطلقة، إنما كان فى ذات ثالثة يشترك فيها الجسد مع الروح فى درجة النقاء والصفاء؛ ليكون مؤهلاً لاختراق الآفاق التى تستطيع الروح اختراقها.

وسوف نزيد هذا الباب، إن شاء الله تفصيلاً. عند تعرضنا للآيات الكريمة فى بداية سورة النجم.

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾

قال جل شأنه فى بداية سورة (النجم):

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾

[النجم: ١ - ١٨]

أرى أنه من المناسب، قبل الإدلاء برؤيتى للآيات، أن أُورد لكم ما قاله الأقدمون فى تأويل هذه الآيات، وذلك استهدافاً لأمرين:

١ - تقديم فكرة أوليَّة عن دلالات الآيات المحتملة.

٢ - وقوف القارئ على الخلافات الحاصلة فى تأويل بعض الآيات.

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾

النجم: الثريّا إذا سقطت مع الفجر، والعرب تسمّى الثريَّا نجماً. أو أنه جنس النجوم إذا غربت. أو إذا انتثرت يوم القيامة.

[هَوَى]

الهويّ: النزول والسقوط[1].

وهو قسم منه جل شأنه، وجوابه قوله تعالى: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾

---

(١) تفسير القرطبى: الجزء السابع عشر. ص ٨٢، ٨٣.

أى ما ضل محمدٌ ﷺ عن الحق، وما حاد عنه.

[ومَا غوَىٰ]

الغيُّ ضد الرُّشد، أى ما صار غاوياً[١].

﴿ ومَا ينطِقُ عنِ الْهوَىٰ ۝٣ إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾

أى ما يخرج نطقُه عن رأيه، إنما هو بوحيٍ مِن الله عز وجل.

﴿ علَّمهُ شديدُ القُوىٰ ﴾

ورد فى تفسيرها قولان:

١ - قال الحسنُ: هو الله عزَّ وجل، ويكون قوله (ذو مرّة) تمام الكلام.. ومعناه ذو قوّة، والقوّة من صفات الله تعالى، ثم قال (فاستوى) يعنى الله عز وجل، أى استوى على العرش[٢].

٢ - هو جبريل عليه السلام عند الجمهور. (ذو مرّة) ذو منظر حسن، عن ابن عباس. (فاستوى) فاستقام على صورة نفسه الحقيقيّة، دون الصورة التى كان يتمثل بها كلما هبط بالوحى، وكان ينزل فى صورة دحية، وذلك أن رسول الله ﷺ أحبّ أن يراه على صورته التى جُبِل عليها، فاستوى له فى الأفق الأعلى، وهو أفق الشمس، فملأ الأفق.

وقيل: ما رآه أحد من الأنبياء عليهم السلام فى صورته الحقيقية سوى محمدﷺ مرتين، مرة فى الأرض ومرّة فى السماء[٣].

أما فى الأرض، فعندما كان ﷺ بحراء، طلع له جبريل من المشرق، فسدّ الأرض إلى المغرب، فخر النبى ﷺ مغشياً عليه[٤].

(١) تفسير القرطبى: الجزء السابع عشر، ص٨٤.

(٢) السابق: ص٨٥.

(٣) تفسير النسفى: الجزء الرابع، ص٢٨٦.

(٤) تفسير القرطبى: الجزء السابع عشر، ٨٧.

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾

١ - أى دنا جبريل عليه السلام بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض. (فَتَدَلَّى) فنزل على النبى ﷺ بالوحى[١].

٢ - وقيل: فتدلّى أى فزاد فى القرب، والتدلّى هو النزول بقرب الشىء[٢].

٣ - وعن ابن عباس أن معناه: إن الله تبارك وتعالى (دنا) من محمد ﷺ، (فتدلى) أصل التدلى: النزول إلى الشىء حتى يقرب منه، فوُضع موضع القرب.

٤ - قال الجرجانى: فى الكلام تقديم وتأخير، أى تدلّى فدنا؛ لأنّ التدلّى سبب الدنوّ.

٥ - وقال ابن الأنبارى، ثم تدلّى جبريل، أى نزل من السماء، فدنا من محمد ﷺ.

﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾

١ - أى كان محمد من ربه أو من جبريل قاب قوسين أو أدنى، أى قدر قوسين عربيتين، أى كان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين[٣].

٢ - قال ابن كثير. إن هذا المقترب الدانى، الذى صار بينه وبين محمد ﷺ قاب قوسين أو أدنى، إنما هو جبريل عليه السلام، وهو قول أم المؤمنين عائشة وابن مسعود وأبى ذر وأبى هريرة.

٣ - روى مسلم فى صحيحه عن ابن عباس أنه قال: رأى محمد ربَّه بفؤاده مرتين، فجعل هذه إحداهما[٤].

---

(١) تفسير القرطبى: الجزء السابع عشر، ص٨٨.

(٢) تفسير النسفى: الجزء الرابع، ص ٢٨٦.

(٣) تفسير القرطبى: الجزء السابع عشر، ص٨٩.

(٤) تفسير ابن كثير: الجزء الرابع، ص ٢٥٠.

﴿أَوْ أَدْنَى﴾

قيل أن (أو) بمعنى الواو، أى قاب قوسين وأدنى. وقيل: بمعنى (بل)، أى: بل أدنى[1].

ومن جعل الضمير عائدا إلى الله تعالى، لا إلى جبريل، كان عبارة عن نهاية القرب، ولطف المحلّ، وإيضاح المعرفة، والإشراف على الحقيقة من محمد ﷺ وإنافة المنزلة، والقرب من الله، ويتأول فيه ما يتأول فى قوله جل شأنه فى حديث قدسى: « من تقرّب منى شبراً تقرّبت منه ذراعاً، ومن أتانى يمشى أتيته هرولة» قرب بالإجابة والقبول، وإتيان الإحسان، وتعجيل المأمول.

٤ - وقيل: (ثمّ دنا) جبريل من ربه (فكان قاب قوسين أو أدنى) قاله مجاهد، ويدلّ عليه ما روى فى الحديث (إن أقرب الملائكة من الله جبريل عليه السلام).

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾

١ - فأوحى الله تعالى إلى عبده محمد ﷺ ما أوحى.

٢ - وقيل: فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ﷺ ما أوحى إليه ربُّه.

٣ - وقيل: أوحى الله إلى جبريل، وأوحى جبريل إلى محمد ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ تفخيم الوحى الذى أوحى إليه[2].

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾

أى لم يكذب قلب محمد ﷺ ليلة المعراج، وذلك أن الله تعالى جعل بصره فى فؤاده، حتى رأى الله تعالى. وجعل الله تلك رؤية، وهو قول ابن عباس[3].

---

(١) تفسير القرطبى: الجزء السابع عشر، ص٩٠.

(٢) السابق: ص٩١.

(٣) تفسير القرطبى: الجزء السابع عشر، ص٩٢.

وفى صحيح مسلم عن أبى ذر، قال : سألت رسول ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: (نورٌ أنى أراه) وفى رواية (رأيت نوراً).

فقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشجّ، حدثنا أبو خالد عن موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب، قال: قالوا: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ قال: رأيته بفؤادى مرتين، ثم قرأ ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾. وفى رواية أخرى قال: (لم أره بعينى، ورأيته بفؤادى مرتين) ثم تلا﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبى عدى عن داود عن الشعبى عن مروان، قال: «كنت عند عائشة، فقلت: أليس الله يقول: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ فقالت: أنا أوّل هذه الأمة، سألت رسول الله ﷺ عنها فقال: إنما ذاك جبريل لم يره فى صورته التى خلق عليها إلا مرتين، رآه منهبطاً من السماء إلى الأرض، ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض»[1].

﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾

أى: أتُجادلونه وتدافعونه فى أنه رأى الله، فقالوا: صف لنا بيت المقدس، وأخبرنا عن عيرنا التى فى طريق الشام[2].

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾

١ - رأى محمد ﷺ جبريل مرَّة أُخْرى، من النزول، أى نزل عليه جبريل عليه السلام، نزلة أخرى فى صورة نفسه، فرآه عليها، وذلك ليلة المعراج[3].

٢ - وقال ابن عباس: رأى محمد ﷺ ربَّه مرة أخرى بقلبه.

---

(١) تفسير ابن كثير: الجزء الرابع، ص٨٣.

(٢) تفسير القرطبى: الجزء السابع عشر، ص ٩٣.

(٣) تفسير النسفى: الجزء الرابع ، ص ٢٨٧.

﴿ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى ﴾

السدر: شجر النبق، وهى فى السماء السابعة، كما فى صحيح مسلم، وينتهى إليها ما يُعْرج به من الأرض، فيقبض منها، وإليها ينتهى ما يُهبط به من فوقها، فيقُبض منها[1].

وقيل: لم يجاوزها أحد، وإليها ينتهى علم الملائكة وغيرهم، ولا يعلم أحد ما وراءها[2].

﴿ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴾

قال ابن عباس: هى التى يصعد إليها المتقون.

وقيل: إنها الجنة التى تأوى إليها أرواح الشهداء[3].

﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾

أى: رآه إذ يغشى السدرة ما يغشى، وهو تعظيم وتكثير لما يغشاها. وقد عُلم بهذه العبارة أن ما يغشاها من الخلائق الدالّة على عظمة الله تعالى جلاله أشياء لايحيط بها الوصف[4].

وسئل رسول الله ﷺ: ما غشيها؟

قال: فراش من ذهب. وفى خبر آخر (غشيها نور من الله حتى ما يستطيع أحَد أن ينظر إليها).

وعن النبى ﷺ قال: «رأيت السِّدرة يغشاها فراش من ذهب، ورأيت على كل ورقة ملكاً قائماً، يسّبح الله تعالى»[5].

---

(١) تفسير القرطبى: الجزء السابع عشر، ص ٩٤.

(٢) تفسير النسفى: الجزء الرابع ، ص ٢٨٧.

(٣) تفسير القرطبى: الجزء السابع عشر، ص ٩٦.

(٤) تفسير النسفى: الجزء الرابع ، ص ٢٨٨.

(٥) تفسير القرطبى: الجزء السابع عشر، ص ٩٦.

﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾

قال ابن عباس. أى ما عدل يميناً ولا شمالاً، ولا تجاوز الحدّ الذى رأى.

وقيل: ما جاوز ما أُمِرَ به[1].

﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾

أى لقد رأى من الآيات التى هى كبراها وعظماها، يعنى حين رقى به إلى السماء، فأُرِى عجائب الملكوت[2].

وفى صحيح مسلم عن عبدالله قال: (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) قال: رأى جبريل فى صورته، له ستمائة جناح.

وقيل: هو ما رأى تلك الليلة فى مسراه فى عوده وبدئه، وهو أحسن[3].

وإلى هنا أكتفى بما سردتُه عليكم من أقوال الصحابة والمفسرين، فى تأويل تلك الآيات. ومن خلال ذلك السرد يتّضح لكم ما وقع فيه السلف الصالح من اختلافات، نبعت من خلال اجتهاد كل منهم فى تأويل تلك الآيات.

وفيما يلى أعرض عليكم رؤيتى الاجتهاديَّة التأمليَّة التى اعتمدت فيها على عدة محاور:

١ - المنطق اللغوى الذى يفرض نفسه من خلال شيئين:

أ - معنى الكلمة وما تطرحه من دلالة.

ب- البناء الإعرابى وما فيه من دلالة.

٢ - المنطق العقيدى، الذى ينطلق من خلال محورين:

أ - الذات الإلهية وما يليق بها.

ب- الذات النبوية وما يليق بها.

---

(١) تفسير القرطبى: الجزء السابع عشر، ص٩٧.

(٢) تفسير النسفى: الجزء الرابع، ص٢٨٨.

(٣) تفسير القرطبى: الجزء السابع عشر، ص٩٨.

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾

رُؤيَـة

﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾

لقد جاءت هذه الآية مشيرة إلى كل الأحداث التى ذُكرت فى الآيات السابقة لها. وليس هذا فحسب، بل وإلى ما ورد فى الآية الأولى من سورة الإسراء، وهو قوله تعالى: ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾، وذلك من خلال اتحاد الآيتين فى الدلالة على أن الإسراء كان من أجل أن يرى رسول الله ﷺ من آيات ربه، والمعراج أيضاً كان من أجل ذلك، ولكنه عُبرِّ عنه بالزمن الماضى (رأى) إشارة إلى أنّ ما بُدئ به (أسرى) قد تمّ وتحققت الغاية منه.

وقد ارتأيتُ أنْ أبدأ بهذه الآية قبل غيرها؛ لأنها شهادة منه جل شأنه، يؤكد بها لعباده المؤمنين: أن محمداً ﷺ قد رأى ما ذكر فى الآيات السابقة رؤية يقين، لا رؤيا منام.

لذلك، كان من شأن الابتداء بها أنْ يسبغ على الآيات السابقة لها قدراً من اليقين بها:

أولاً: فقد تعرب هذه الآية على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول:

رأى: فعل ماضٍ، الفاعل ضمير مستتر تقديره (هو).

الكبرى: نعت لمفعول به محذوف تقديره (الآيات الكبرى).

وعلى ذلك تكون (من) فى الآية للتبعيض، أى أنه ﷺ رأى بعض الآيات، ولا كل الآيات.

الوجه الثانى:

أن تكون (مِنْ) زائدة، أى رأى آياتِ ربِّه الكبرى[1].

لتكون كلمة (آيات) الواردة فى الآية هى المفعول به. ولكنه إعراب لا يستقيم مع الرؤية الإيمانية، لأنّه يجعل رسول الله ﷺ مطَّلعاً على كلِّ آيات ربِّه، وهو أمر مستحيل، لآن آياته جلّ شأنه فوق العد وفوق الوصف.

الوجه الثالث:

أن يكون المفعول به محذوفاً، وهو فى رؤيتى، الأكثر ملاءمة لموقف رسول الله ﷺ فى الإسراء والمعراج، لأن التصريح بالمفعول به من شأنه أنْ يجعل الفعل مقصوراً عليه وحده، وأمّا فى حال حذفه، واحتماله تقديرات عديدة، فإن للفعل أن يأخذ آفاقاً عديدة، وهذه هى الحكمة من عدم ذكر المفعول به فى الآية، فليس المرئى فى الآية واحداً، بل كانت مرئيات عديدة. ولم تكن طبيعة الرؤية أيضاً واحدة. إنما كانت رؤى بصرية ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ ورؤى فؤادية (قلبيّة) ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾.

وكما ترون فإنه لا سبيل لذكر تلك المرئيات، التى وقع عليها فعل الرؤية، سوى حذف المفعول به، ليلجأ قارئ القرآن إلى باب تقدير المحذوف، معتمداً على ما يملكه من مؤشرات فى هذه الآيات، وفى غيرها من آيات القرآن الكريم.

ثانياً: وكما قلت قبل قليل، فإن هذه الآية جاءت متضافرة مع قوله تعالى فى بداية سورة الإسراء: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾. وقد قصر بعض المفسرين تلك الآيات على ما ذُكر فى كتاب الله تعالى، وعلى ما ورد فى الأثر عنه ﷺ، ولكن المقام يشير إلى أنَّ الآيات أكثر من ذلك، وقد تكون غير ما يظنه البعض.

---

(١) تفسير القرطبى: الجزء السابع عشر، ص٩٩.

ورد فى بعض حديث لرسول الله ﷺ رواه ابن عباس، قوله (. . . فأفضى إلىَّ بأشياء لم يُؤذن لى أن أحدّثكموها)[1].

والذى أفضى لرسول الله بهذه الأشياء هو رب العالمين، وذلك فى رحلة المعراج، وعلّق ابن كثير على ذلك بقوله: إن فى سنده ضعفاً، ولكن تعليقه هذا لايمنع من إثبات هذه الصفة لرسول الله ﷺ؛ لأنه يعلم من ربّه ما لا يعلمه الخلق أجمعون، وقد حفلت كتب الأحاديث بشواهد على ذلك العلم الذى تلقاه رسول الله عن ربه. ومع ذلك، فإنه ﷺ لم يلقِ إلى المسلمين إلا ما أُذن له فيه، وماعدا ذلك، فقد بقى محفوظاً فى صدر رسول الله، ويشهد على ذلك قوله:

« لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» [رواه ابن ماجه] . . فهذا العلم الذى يجعلنا نضحك قليلاً ونبكى كثيراً احتفظ به رسول الله لنفسه؛ لأنه لم يؤذن له بإلقائه إلى المسلمين، ومن ذلك العلم كانت الآيات التى رآها رسول الله ﷺ فى رحلة الإسراء والمعراج.

(الهيكل اللغوىّ للآيَاتِ)

سأستعرض معكم فيما يلى جملة من الأفعال الواردة فى الآيات، لنرى من خلال ذلك ما تحتمله من تأويلات، اعتمدَتْ على الاختلاف فى تقدير المراد من الضمير الوارد فى كل فعل. ومن ثمّ لنقيّم تلك الرؤى، من باب ملاءمتها للمقام ولصاحب المقال جل وعلا.

(١) تفسير ابن كثير: الجزء الرابع ، ص٢٥٢.

١ - ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾

الفعل	الضمير	صاحب الضمير
ما ضل	صاحبكم (اسم ظاهر)	محمد ﷺ
ما غوى	هو (مستتر)	محمد ﷺ
ينطق	هو (مستتر)	محمد ﷺ

٢ - ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾

الهاء فى (علّمه) المقصود بها محمد ﷺ وهى فى محل نصب مفعول به.

٣ - ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾

الفعل	الضمير	صاحب الضمير
استوى	هو (مستتر)	١ - جبريل عليه السلام ٢ - رب العالمين

٤ - ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾

الفعل	الضمير	صاحب الضمير
دنا	هو (مستتر)	١ - جبريل عليه السلام ٢ - رب العالمين
فتدلّى	هو (مستتر)	١ - جبريل عليه السلام ٢ - رب العالمين
فكان	هو (مستتر)	١ - محمد ﷺ ٢ - جبريل عليه السلام

٥ - ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾

الفعل	الضمير	صاحب الضمير
فأوحى	هو (مستتر)	١ - رب العالمين ٢ - جبريل عليه السلام

٦ - ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾

الفعل	الضمير	صاحب الضمير
تمارونه	الهاء (بارز)	محمد ﷺ
يرى	هو (مستتر)	محمد ﷺ

٧ - ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾

الفعل	الضمير	صاحب الضمير
رآه	١ - هو (مستتر) ٢ - الهاء (بارز)	محمد ﷺ ١ - جبريل عليه السلام ٢ - رب العالمين

٨ - ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾

الفعل	الضمير	صاحب الضمير
رأى	هو (مستتر)	محمد ﷺ

من خلال ذلك الاستقراء نلاحظ أن الضمائر الواردة فى الآيات تنقسم إلى مجموعتين:

أ - مجموعة أمَرّ المفسّرون دلالتها على رسول الله ﷺ وهى المجموعات: الأولى، والسَّادسة، والضمير الأول فى المجموعة السَّابعة، والثامنة.

ب- أما المجموعات الباقية فقد اختلف فيها، وذلك حسب التأويل المطروح فى كل مجموعة.

وهذا الاختلاف فى تقدير الضمائر من شأنه أن يؤثّر على سنة الأفعال، ولنا فى ظل هذا التصنيف رؤية ما، سأعرضها عليكم فيما يلى، محاولاً دعمها بالمنطق اللغوى والعقيدى:

أولاً: إشارات عامة:

١ - من المسلّم به أن الآيات جاءت فى معرض الحديث عن رسول الله ﷺ، لا عن جبريل عليه السلام، فإذا ما كان هناك ضمير يعود على سابق، كان محتملاً للدلالة على رسول الله ﷺ أو على جبريل عليه السلام، فإن الأولى عوده على رسول الله؛ لأن الآيات جاءت فى معرض ذكره هو ﷺ.

٢ - وكلمة (صاحبكم) التى وردت فى بداية الكلام، ما هى إلا المحور الذى تدور عليه جل الضمائر الواردة فى الآيات. فعندما أخبر رسول الله أهل مكة بخبر الإسراء ولم يستطيعوا أن يستوعبوه. فارتد من ارتدّ عن الإسلام، وارتاب من ارتاب، فجاء قوله جل شأنه ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ وتتابعت بعد ذلك الآيات لتوثيق ما أخبر به رسول الله قومه، من أمور تستحيل فى عرف الناس على التحقّق.

٣ - ثم إن اعتماد التأويلات التى ذكرت من شأنه أن يوقع خلخلة فى الإعجاز البيانى فى القرآن الكريم. فإذا ما كانت هناك ضمائر متعددة فى نصّ ما، فليس من الفصاحة فى شىء أن تتردّد دلالتها بين ذوات مختلفة، إن لم يستدع الأمر ذلك.

٤ - ثم إن المعجزة الإلهيَّة لا تتجلّى إلا فى ظلّ الوضوح المعقول، لا فى ظل الإبهام والالغاز، الذى جعل عبد القاهر الجرجانى، وهو ما هو، يفترض مساراً آخر للفظ القرآنى غير الذى اعتمده رب العالمين فى قوله : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾، فزعم أن فى الكلام تقديماً وتأخيراً، فقال: إن المراد هو: ثمّ تدلّى فدنا.

فلو كان مراد رب العالمين هو ما افترضه عبدالقاهر، لجاءت الآية كما ظنَّ عبدالقاهر، وفى الصفحات التالية ستلاحظون أن دلالات الآيات ستقودنا إلى مسار واحد فى تأويل تلك الضمائر.

ثانياً : الآيات:

أعرض عليكم فيما يلى رؤيتى لهذه الآيات، مفصلاً فيها القول لعلنى أصل من خلال ذلك إلى مَا أراه متوافقاً مع كرامة رسول الله ﷺ.

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾

١ - يقسم سبحانه وتعالى بالنجم إذا هوى. ولا يكون القسم إلا فى حال جلال المقسم عليه، ولكنه لم يقسم به مجرّداً، إنما أقسم به، وهو فى حالة من حالات ذات الهول العظيم، وهو قوله (هوى) أى ساعة أن يهوى من مكانه، وهى ساعة مهولة، تنخلع لها القلوب، وقد أشار إليها جل شأنه فى معرض تصويره لأهوال يوم القيامة، فقال: ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾ [التكوير : ٢].

وفى موضع آخر أقسم جل شأنه بحالة من حالات النجوم، فقال: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الواقعة : ٧٥، ٧٦].

وبالفعل، إنه لقسم عظيم، أكثر الناس إدراكاً له علماء الفلك، الذين استطاعوا علمياً أن يقفوا على بعض أسرار تلك المواقع والمسافات التى تفصل فيما بينها، والتى لا تقاس إلا بالسنوات الضوئيَّة.

إن درجة علوّ القسم تتناسب، مع درجة المقسم عليه، ولذلك فإن قسمه جل شأنه بحال الكون لحظة (هوىّ) النجوم، مؤشّر على عظمة محمد ﷺ وعظمة ما أُنزل عليه وعظمة حادثة الإسراء والمعراج.

٢ - وذكر فى كتب التفسير قول يشير إلى أنّ ذلك النجم الذى أقسم به الله، إنما هو محمد ﷺ، وهو قول ينسب إلى جعفر الصادق[١].

فما مدى عقلانيّة ذلك التأويل؟

أ - جاء فى السيرة النبوية لابن هشام عن حسان بن ثابت قال: « والله إنى لغلام يفعة، ابن سبع سنين أو ثمانية. . . سمعت يهودياً يصرخ بأعلى صوته على أطمة بيثرب: يا معشر يهود! حتى إذا اجتمعوا إليه، قال: طلع الليلة نجم أحمد والذى ولد به»[٢].

ب- عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سأل جبريل عليه السلام فقال: «يا جبريل كم عُمِّرت من السنين؟ فقال: يا رسول الله لست أعلم، غير أنّ فى الحجاب الرابع نجماً يطلع كل سبعين ألف سنة مرَّة، رأيته اثنين وسبعين ألف مرّة. فقال: يا جبريل، وعزّة ربى جلَّ جلاله أنا ذلك الكوكب» [رواه البخارى][٣].

فذاك الذى هوى إلى السماء الدنيا، فكانت تلك اللحظة هى لحظة ولادته، أى انبعاثه إلى السماء الدنيا، كان نجم رسول الله ﷺ، أو أنه كان طوراً من أطوار ذاته الشريفة: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[نوح:١٣، ١٤]

وهو طور ترافق مع طور آخر، وهو ذلك المولود المبارك، الذى يشير إليه قوله جل شأنه (صاحبكم).

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾

أىْ ما ضلَّ محمَّد ﷺ عن الحق، وما حاد عنه، وما صار غاوياً. وجاء التعبير بقوله (صاحبكم) مشيراً إليه ﷺ من باب أنه بشر مثلكم، يحمل نفس الصفات البشرية التى تحملونها، ومقيمٌ على الأرض التى تقيمون فيها.

---

(١) تفسير القرطبى: الجزء السابع عشر، ص٨٣.

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام: الجزء الأول، ص ١١٤.

(٣) السيرة الحلبية النبوية - ابن برهان الحلبى - الجزء الأول - ص٥١.

وجاء التعبير بالفعل (ضلّ) سابقاً للفعل (غوى)؛ لأنّ الضلالة تسبق الغواية. فإذا ما تمكنت الضلالة من امرئ فإنه لابد من أن يكون بعد ذلك غاوياً، يقود الآخرين إلى طريق الغواية.

وبعد نفى الضلالة والغواية عن محمد ﷺ، نفى عنه جلّ شأنه صفة أخرى، وهى قوله:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾

أى ما يخرج نطقه عن رأيه وهوى نفسه.

كل إنسان لابد له من النطق، إذا كان جهاز النطق لديه سليماً، وكذلك رسول الله ﷺ. الذى ميّزه رب العالمين عن البشر جميعاً، فأخرجه من صفة النطق عن الهوى، والتى تعتبر صفة طبيعية لدى بنى الإنسان؛ ليكون بذلك خير الخلق أجمعين وأصفاهم روحاً وجسداً. فقال:

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾

أى أن كلماته التى تسمعونها ما هى إلا كلام يلقيه جل شأنه على لسانه، ولذلك فهو كلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ففى هاتين الآيتين تجريد لرسول الله ﷺ من كل العوالق الدنيوية التى من شأنها التأثير على فعل الإنسان وقوله، وقد أشار ﷺ إلى أن فمه لا يخرج منه إلا الحق فقال فى حديث رواه الإمام أحمد بن حنبل عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: « إنى لا أقول إلا حقاً . . قال بعض أصحابه: فإنك تداعبنا يا رسول الله، فقال: إنى لا أقول إلا حقاً».

وبعد أن نفى جل شأنه عن رسوله كل ما من شأنه أن يثير الشبهة حول ما يليقه إلى القوم من قول، أراد أن يبين لعباده هويّة المنبع الذى يستقى منه رسول الله ضياء الكلمات:

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾

وهنا يبدأ الاختلاف فى التأويل، ففريق يقول أن شديد القوى هو جبريل عليه السلام، وفريق آخر يقول إنه ربّ العالمين. ولكنهم اتفقوا على أنّ (الهاء) ضمير يعود علىّ مُحمّدٍ صلى الله عليه وسلم .

فمن هو شديد القوى؟

١ - هو جبريل عليه السلام عند الجمهور، وعند غيرهم هو الله جل شأنه، وذلك لأن النصّ يحتمل الدلالتين.

٢ - ولو أننا أخذنا مسار العلم لدى الملائكة وغيرهم من البداية لوجدناه كما يلى:

أ- عندما عرض جل شأنه الأشياء على الملائكة، طالباً منهم أن ينبئوه بأسمائها قالوا: ﴿ **سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴾[**البقرة**:٣٢].

فلا علم للمخلوقات بدون تعليم الله تعالى لها؛ لأنها لم تأت صاحبة علم من تلقاء أنفسها، فقد خلقها الله جل شأنه أولاً، ثم علّمها تعليماً مباشراً.

ب- أما أبونا آدم عليه السلام فقد قال فيه جل شأنه:

﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴾ [**البقرة**: ٣١، ٣٢]

فلم تكن الملائكة على علم بتلك الأسماء، فقط آدم عليه السلام هو الذى كان يعلم تلك الأسماء. فمن أين له ذلك العلم؟ وهو الذى جاء عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً؟

إنه الله جل وعلا، الذى علّم آدم تلك الأسماء علماً مباشراً.

جـ- وقد يُعترض على تلك الشواهد بأن العلم المذكور فى الشاهدين السابقين علم خاصّ، بينما العلم فى آية النجم علم عام، بمعنى أنه علم يعلمه جبريل عليه السلام، فأُمر بإلقائه إلى رسول الله.

وحتى لو سلمنا بذلك، فإن العلم فى النهاية لله تعالى؛ لأن جبريل عليه السلام لم يبتكره من تلقاء نفسه، بل علّمه إيّاه رب العالمين، فلا يظهره لأحد من الخلق إلا بأمر الله تعالى، وكأنه بذلك لسان الإرادة الإلهيَّة، التى تقول للشىء كن فيكون.

د - وبالإمكان أن نجعل القول بأن ﴿شَدِيدُ الْقُوَى﴾ هو جبريل عليه السلام شاهداً على أنه، أيضاً، رب العالمين، وذلك باستخدام القياس المنطقى:

الله تعالى علم جبريل عليه السلام.

جبريل عليه السلام علم محمد ﷺ

وإذاً، فالله تعالى علّم محمد ﷺ.

هـ- ومن بين الشواهد على علم رسول الله ﷺ المباشر من رب العالمين الحديث التالى:

روى الإمام أحمد: حدثنا عبدالرزاق، حدثنا معمر عن أيوب عن أبى قلابة عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال:

(أتانى ربِّى فى أحسن صورة - أحسبه يعنى فى النوم- فقال: يا محمد، أتدرى فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: لا. فوضع يده بين كتفىّ حتى وجدتُ بردها بين ثديى - أو قال نحرى - فتعلَّمت ما فى السموات وما فى الأرض. ثم قال: يا محمد، هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى: قال: قلت: نعم. يختصمون فى الكفارات والدرجات. قال: وما الكفّارات؟ قال: قلت: المكث فى المساجد بعد الصّلوات، والمشى على الأقدام إلى الجماعات، وإبلاغ الوضوء فى المكاره. من فعل ذلك عاش بخير ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمُّه. وقال: قل يا محمّد إذا صليت: اللهم إنى أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحبّ المساكين،

وإذا أردت بعبادك فتنة أن تقبضنى إليك غير مفتون. قال: والدرجات بذل الطعام وإفشاء السَّلام، والصَّلاة بالليل والناس نيام)[1].

و- وخلاصة القول فى ذلك أن رسول الله ﷺ تلقّى العلم مرةً من جبريل عليه السلام، وأخرى من رب العالمين مباشرة، فجاءت (شديد القوى) حاملة لهاتين الدلالتين، فمن قال إنه جبريل عليه السلام لم يخطئ، ومن قال أنه رب العالمين، أيضاً، لم يُخطىء، لأنّ العلم الذى يحمله جبريل عليه السلام علم إلهى، جُعِل جبريل عليه السلام أمينا عليه، فوصفه جل شأنه بـ (الروح الأمين).

﴿ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴾

ذو مرّة: ذو قَوّة.

أو ذو منظرٍ حسنٍ كما قال ابن عباس. وكلاهما يليق بجبريل عليه السلام.

إن (الفاء) فى اللغة تفيد الترتيب مع التعقيب، أى أنّ ما بعدها يأتى عقب ما قبلها، سواء أكان فعلاً أم اسماً. وفى الآية جاء الفعل (استوى) تالياً للفعل (علّم)، إشارة إلى أنّ الاستواء كان طوراً من أطوار تهيئة رسول الله لاختراق الآفاق، وكان السبب فى ذلك التطور العلم الذى تلقاه رسول الله من (شديد القوى).

ولتعلُّق الفاعل (شديد القوى)، والمفعول به محمد ﷺ بالفعل (علّم) جاز أنْ يُسنْد الفعل (استوى) إلى اثنين:

١ - جبريل عليه السلام.

٢- محمد ﷺ.

إن إلقاء جبريل عليه السلام العلمَ إلى رسول الله، ليس له أنْ يؤثر على طبيعته الملائكية، فهو (الروح الأمين) و(الروح القدس) خلقه جل شأنه بعيداً عن تحكّم يد

(١) تفسير ابن كثير: الجزء السابع، ص ٢٥٢.

سوى يد الله تعالى، فكيف تكون عودته إلى طبيعته وخلقته التى خلق بها مرهونة بالعلم الذى يلقيه إلى رسول الله ﷺ؟!

ثمّ إن جبريل عليه السلام محكومٌ بقانون ثابت أودعه فيه ربّ العالمين، بمعنى أنّ القدرات التى يحتوى عليها حاضرة وفعّالة لديه حتى وإن كان متجسّداً فى صورة بشريَّة.

ثانياً : محمد ﷺ.

إن قوله تعالى (فاستوى) جاء بعيدا فى موقعه عن قوله (علّمه). ومن شأن هذا البعد أنْ يُضْعفَ من ملاحظة القارئ للصّلة التى بينهما من خلال حرف العطف(الفاء).

ولو أننا قلنا: علّمه شديد القوى فاستوى، لكانت الملاحظة أكثر قوةّ وبروزاً.

فما هو هذا الاستواء، الذى لم يقرّه المفسرون لرسول الله، وأقرّوه مرةً إلى جبريل عليه السلام ، وأخرى إلى ربّ العالمين؟

١ - إن نص الآية يومئ إلى أن العلم الذى تعلّمه رسولُ الله كان سبباً لاستوائه.

٢ - والاستواء فى اللغة يحمل معنى اكتمال الهيئة، واتخاذها لأنسب الأوضاع الممكنة فى الظروف المحيطة بها.

٣ - ولقد كان رسولُ الله ﷺ بصدد اختراق القانون المادّى، الذى يحجب البشر عن الاطّلاع على ما وراء تلك القوانين، وعلى ما فى السموات. فكان من حكمة الله تعالى أن يأخذ رسولُ الله ﷺ أنسب الهيئات التى تمكّنه من ذلك، فأرسل جبريل عليه السلام. ليعلّمه العلم الذى يؤهّله لذلك الإطلاع، ومن ذلك قوله ﷺ فى حديث الإسراء:

١ - (بينما أن عند البيت بين النائم واليقظان).

٢ - (فشق من النحر إلى مراقّ البطن ثم غسل بماء زمزم).

٣ - (ثمّ ملئ حكمة وإيماناً).

هذا ما تيسر لنا من إشارات ذلك العلم، وما عدا ذلك فعلم يعلمه الله تعالى، يلقيه إلى من شاء من عباده.

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾

(دنا)، (تدلّى).

كلٌّ منهما فعل، فاعله ضمير مستتر تقديره (هو)؟ فعلى من يعودُ هذا الضمير؟

قيل: إنه يعود على جبريل عليه السلام، وقيل إنه يعود على رب العالمين. ولكن السياق العام للأفعال فى الآيات جاء فى مَعْرض الحديث عن رسول الله؛ ما ضل صاحبكم، وما غوى، وما ينطق . . . . ، علّمه، فاستوى، وهو . . . . فقد جاءت الأفعال مسندة إلى ضمائر، كلها تشير إلى رسول الله ﷺ ، فلا مبرر فى السياق اللغوى والمعنوى من شأنه أنّ يضطرنا إلى ترجمة الضمير فى الفعلين المذكورين إلى غير رسول الله.

فعدم ضلاله ﷺ، وعدم غوايته، وعدم نطقه عن الهوى، والعلم الذى تَلقَّاه، ومن ثَمَّ استواؤه، فجعله أكثر دنواً من ربِّ العالمين.

الدنوّ: هو الاقتراب. والتدلّى: النزول بقرب الشىء.

ولعدم استيعاب الذهن البشرى لفكرة التدلى حال نسبتها إلى جبريل عليه السلام أو إلى رب العالمين، قالوا: إنّ فى الآية تقديماً وتأخيراً، وأن أصل الجملة هو: تدلّى فدنا؛ لأن الدنوّ فى هذا الموقف لا يكون إلا بعد التدلى.

ولكن الله جل وعلا قال (دنا فتدلى) إذ لا ضرورة تلجئه إلى هذا الترتيب، وهو يريد ترتيباً آخر كالذى ذكره عبدالقاهر الجرجانى.

قلت سابقاً: إن المعنىَّ بقوله تعالى(دنا) هو محمَّد ﷺ، الذى هيَّأه جل شأنه، ليكون قادراً على اختراق العديد من الحجب التى تفصله عن الحضرة

الإلهيَّة؛ ليكون أكثر قرباً منها. وقد ترجم جل شأنه هذا القرب بقوله (فتدلّى)، والذى فسره بقوله (فكان قاب قوسين أو أدنى).

فكيف يكون القرب من الله تعالى تدلِّياً بالمعنى الذى نعرفه فى قواميس اللغة؟

إن التدلِّى فى الآية لم يأت من خلال واقع الكتلة والمادة، بل جاء من خلال واقع آخر، يتناسب مع الذات الإلهيَّة العليَّة؛ لأنَّه ﷺ، مهما دنا ومهما علا، سيبقى أمام الذات الإلهيَّة متدلِّياً.

دنا رسول الله ﷺ، فاقترب من الذات الإلهيَّة اقتراب كشف لا اقتراب مكان، فازداد اتصالاً بها؛ ليكون متميزاً عمّن سواه من الخلق بالتعلّق الأشدّ بالذات الإلهيَّة، والتدلّى أمام علوّها وشرفها.

﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾

كناية عن القرب الشديد.

وليست المسافة هنا على الحقيقة، إنما هو خطاب، أراد جل شأنه من خلاله أن يُفْهِم عباده معنى القرب الشديد.

واستخدام (أو) لترسيخ وتأكيد فكرة القرب بعيداً عن احتمالات المكان لدى الإنسان، ولكنّ المفسرين قالوا شيئاً آخر:

١ - قيل أن (أو) بمعنى الواو، أى قاب قوسين وأدنى.

٢ - وقيل أنها بمعنى (بل) أى (بل أدنى).

وبهذين التأويلين ننزلق إلى أمرين:

١ - إخراج (أو) عن معناها الحقيقى فى اللغة.

٢ - إلصاق صفة الاضطرار إلى الله تعالى، وهو أمر مستحيل فى حقه سبحانه؛ فهو على كل شىء قدير، ولو أنه أراد (الواو) أو (بل) لذكر إحداهما. ولكنه عدل عنهما إلى استخدام (أو).

فماذا أراد جلَّ شأنه من استخدام (أو)؟

من المعلوم فى قواعد اللغة أنك إذا شككت فى أمرٍ ما، ووجدت أنه يتذبذب بين حقيقتين لا تثبتان، فإنك تستخدم (أو) لإلقاء هذه الصورة التى تحملها فى ذهنك، ولتطرح من خلال ذلك أن الاحتمالين واردان.

فعندما تقول: أن المسافة بين هذا وذاك خمسة أمتار أو ستة. فذلك يعنى أنك شككت فى المسافة. ولكن الشك لا يجوز فى حق الله تعالى، ليقول: ﴿ **فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى** ﴾.

والتعبير بـ(أو) من شأنه أن لا يثبت الخيارين، وأن لا ينفيهما، وكأنّه سبحانه وتعالى يريد للمؤمنين أن يفهموا من خلال ذلك أنّ مسافة القرب ليست مسافة حقيقية، لتكون قاب قوسين أو أدنى. إنما هى شىء آخر، يحمل معنى القرب الشديد، الذى يشير إليه الخياران المذكوران، بدون أن يكون أحدهما قادراً على حمل معنى ذلك القرب الشديد لوحده. فهو دنوّ لا يعلم قدره إلا رب العالمين. فقط لا غير.

﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾

لم يذكر جل شأنه ذلك الوحى الذى أُوحى إلى رسول الله ﷺ، واكتفى بالإشارة إليه بالاسم الموصول (ما)، مبهماً له. ولا يكون الإبهام إلا لأمر يجلّ عن الوصف، لذلك جاء فى القرطبى تعليقاً على هذه الصياغة:

(تفخيم للوحى الذى أوحى إليه).

فما هو الوحى؟

هو نفثٌ يُنْفث فى القلب، فيكون إلهاماً، ومنه قوله ﷺ: « إن روح القدس نفث فى رُوعى إن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب، خذوا ما حلّ ودَعُوا ما حَرُم»[1].

---

(١) تفسير القرطبى: الجزء السادس عشر، ص٥٣.

ولا أريد فى هذا الموضع الاستغراق فى معانى الوحى الواردة فى كتاب الله تعالى، إنّما يكفينا القول بأن ذلك الوحى الذى تَلقّاه رسول الله ﷺ فى السماء، أعلى وأشرف أنواع كلام الله تعالى الذى ذكره فى قوله: ﴿ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ** ﴾[**الشورى**: ٥١].

ثم إن دنوّه ﷺ من ربّه، وتلقيه الوحى المباشر منه سبحانه، أمران لايدركان بالبصر، ولذلك أشار جل شأنه إلى أن تلك الرؤية كانت رؤية فؤادية، لابصريَّة، فقال:

﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾

مستخدماً كلمة (الفؤاد) بدلاً من (البصر) التى استخدمت فى الآية السابعة عشر ﴿ **مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى** ﴾.

فالرؤية الأولى لا يجوز للبصر أن يقف عليها بأى حال من الأحوال، لذلك كانت أداة الرؤية هى الفؤاد. ومما يؤكد ذلك:

١ - روى مسلم فى صحيحه عن ابن عباس أنه قال: (رأى محمد ربه بفؤاده مرتين) فجعل هذه إحداهما[١].

٢ - وروى ابن جرير، عن بعض أصحاب النبى ﷺ، قال: قلنا: يا رسول الله، هل رأيت ربك؟ قال: «لم أره بعينى، ورأيته بفؤادى مرتين»[٢] ثم تلا: ﴿ **ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ** ﴾.

٣ - وفى صحيح مسلم عن أبى ذر، قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربَّك؟ فقال: (نور أنىَّ أراه)، وفى رواية: (رأيت نوراً)[٣].

---

(١) تفسير ابن كثير: الجزء الرابع، ص ٢٥٠.

(٢) السابق، ص ٢٥٣.

(٣) تفسير ابن كثير: الجزء الرابع، ص ٢٥٣.

ومع ذلك فإننا لا نقول أن رؤية الفؤاد رؤية مطلقة؛ لأنّ الفؤاد مخلوق، وليس للمخلوق أن يدرك الخالق، ولكنه قد يرى من الخالق ما يتناسب مع القدرة التى أودعها جلّ شأنه فيه. وهناك من الشواهد ما يشير إلى ذلك، ويدعمه:

١ - قوله تعالى : ﴿ **فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى** ﴾ ، الذى يشير، فوق ما قلناه سابقاً، إلى أنَّ الحجب لم تَزُلْ نهائياً بين رسول الله وبين الحضرة الإلهيّة، فقد بقى قدر من الحجب لم يستطع الفؤاد أنْ يتجاوزها، وهى التى يشير إليها التعبيران (قاب قوسين) و (أو أدنى).

٢ - قال تعالى فى كتابه الكريم: ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [**النور**: ٣٥]

أى أن نور الله تعالى حاضر فى الأرض مثلما هو حاضر فى السموات، وإدراك البشر لذلك النور مرهونٌ بالحجب، التى جعلها رب العالمين حاجزاً يمنع الناس من الاحتراق بنور وجهه، رحمةً منه وفضلاً، وقد ورد فى ذلك ما يلى: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله لا ينام، ولا ينبغى له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرّفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفها لأحرقت سبحانُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[رواه ابن ماجه].

ولكنّ الله تعالى قد يهيىء لعبد من عباده قدْراً أكبر من ذلك النور، من خلال التصرُّف فى طبيعة خلقه، مثلما فعل مع محمد ﷺ، إذ جعل جبريل عليه السلام يشق بطنه، ويغسل جوفه بماء زمزم، ثم يملؤه إيماناً وحكمة.

وفى بعض روايات حديث الإسراء ورد أن جبريل عليه السلام وقف عند حدّ معين فى السماء طالباً من محمد ﷺ أن يتقدم لوحده، وعندما سأله رسول الله فى ذلك، قال: « لو تقدّمتُ لاحترقْتُ، أما أنت فلو تقدّمْتَ لاخترقْتَ».

وهو قول من شأنه أن يثبت حقيقة مؤدَّاها أنّ الملائكة المقرّبين خاضعون لقدرٍ من الحجب، تمنعهم من الاحتراق بنور وجه الله تعالى، ولكنها أقل من حجب بنى البشر.

ومن شأن هذا القول أنْ يقرّ لرسول الله ﷺ منزلة من الله تعالى، تقصر دونها منزلة أقرب المقربين، وعلى رأسهم جبريل عليه السلام. بدون أن يعنى ذلك انعدام الحجب بين رسول الله وبين ربه، وهو الذى نجده فى قوله تعالى:

﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾

﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى ﴾

أى أتجادلونه وتدافعونه فى أنه رأى الله[1].

ولو استُبْدل قوله تعالى (يرى) بقولنا (رأى) لكانت أكثر مناسبة لسياق الآيات؛ لأنّ محمداً ﷺ رأى ما رأى فى زمن إسرائه ومعراجه. وهو فعل تمّ وانقضى، لذلك كان التعبير بالفعل الماضى أكثر ملاءمة ولكنه سبحانه استخدم الفعل (يرى) الذى يفيد التجدّد والاستمرار، وكأنَّ الرؤى التى رآها رسول الله ما زالت مستمرّة ومتصّلة، لم تنقطع بعد عودته إلى فراشه فى مكة. ومِّما يدعم هذا الرأى، ما حدث معه ﷺ عندما سأله أهل مكة عن بيت المقدس.

جاء فى الصّحيح عن أبى هريرة: قال: قال رسول الله ﷺ: « لقد رأيتنى فى الحجر، وقريش تسألنى عن مسراى، فسألتنى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكُربت كرباً ما كربت مثله قط، قال: فرفعه الله لى أنظر إليه، فما سألونى عن شىء إلا أنبأتهم به»[2].

ولم تكن رؤيته ﷺ للمسجد الأقصى فى ذلك الموقف رؤية عاديّة، متيسرةً لمن سواه من البشر. بل كانت رؤية تفوق قدرة البصر الآدمى؛ لتتجاوزه إلى رؤية الفؤاد. فبين المسجد الحرام والمسجد الأقصى آلاف الكيلومترات، وإذا ما رُفع المسجد الأقصى لرسول الله بالمعنى الحقيقى للرفع، فإنّ الأمر يخضع لعدّة احتمالات، كلهّا لا تجوز:

---

(١) تفسير القرطبى: الجزء السابع عشر، ص٩٣.

(٢) تفسير القرطبى: الجزء العاشر، ص٢٠٨.

١ - إذا رُفع وبقى على نفس البعد من المسجد الحرام، فإنّ البصر العددىّ لا يمكن له أنْ يراه من تلك المسافة أبداً. وما إذا رآه ﷺ من تلك المسافة، فإن ذلك يعنى أن بصره قد تجاوز القوانين الطبيعية، التى تحكم حاسّة البصر؛ لتغدو رؤيته رؤية فؤادية، لا رؤية بصريَّة.

٢ - أما إذا تَمَّ رفعه، ثمَّ جعله رب العالمين قريباً من رسول الله، مثلما تم رفع عرش ملكة سبأ ونقله إلى فلسطين، فإن ذلك من شأنه أن يتعارض مع بعض المفاهيم.

أ - المسجد الأقصى بناء من حجر، تدركه أبصار الآدميين. فإذا كان قريباً من مرأى رسول الله لرآه الآخرون. وهذا أمر لم يرد ذكره فى السيرة النبوية.

ب- ولو أن المسجد الأقصى رُفع من مكانه؛ ليكون قريباً من بصر رسول الله، لذكر لنا التاريخ ذلك من أفواه أهل الأرض المقدسة، الذين كانوا يعيشون فى أكناف المسجد الأقصى، لأنه إذا ما رفع حقيقة، لرأى الناس مكانه خالياً، أو لرأوه يرتفع فى السماء بعيداً عنهم، ولم يرد فى التاريخ أن ذلك كان.

إذاً، فرؤية رسول الله رؤية متجددة ومستمرّة لم تتوقف بعد عودته من رحلة الإسراء والمعراج. ومن بين تلك الرؤى:

١ - الرؤى الحكيمة والتشريعية الواردة فى الأحاديث النبوية.

٢- الرؤى المستقبلية، التى تخبر عن أشياء ستقع فى الأزمان اللاحقة، ليس فى الدنيا وحسب، بل وفى الآخرة.

وهذه الرؤى كلها رؤى فؤادية، لم يسلّم بها المشركون، فجادلوا رسول الله كثيراً، واستمرّوا فى المجادلة، لأن هذه الرؤى كانت متتابعة، على مدى حياته ﷺ.

ولمزيد من التحدّى منه جل شأنه، لهؤلاء المشركين، ونكايةً بهم، جاء قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾

قال ابن عباس: رأى محمد ﷺ ربَّه مرةً أخرى بقلبه[1].

وأما الذين قالوا: إن المرئىّ هو جبريل عليه السلام، فيُردّ عليهم قولهم بما يلى:

١ - إن رؤية جبريل عليه السلام بالبصر ممكنة؛ لأنه فى النهاية خلق من خلق الله تعالى. وقد ثبتت رؤيته فى الأثر، وذلك عندما كان ﷺ فى غار حراء، فطلع له جبريل من المشرق ،فسدّ الأرض إلى المغرب، فخرّ النبى ﷺ مغشياً عليه.

وبالنظر إلى الآية السابقة، التى جعلت الرؤية بالفؤاد، فإن تأويل الضمير فى (رآه) بجبريل لا يستقيم مع الرؤية الفؤادية؛ لأنه عليه السلام مخلوق يدركه البصر المجرّد. وأمّا تأويل الضمير برب العالمين، فمن شأنه أن يستقيم مع الرؤية الفؤادية، ويدعم ذلك قول رسول الله ﷺ :« رأيته بفؤادى مرتين» ثم قرأ ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾.

٢ - إن الذين يقولون أن محمداً ﷺ قد رأى جبريل عليه السلام مرتين، مستشهدين على ذلك بما يلى:

أ - ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾.

ب- ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ أى جبريل عليه السلام.

ولكننا نلاحظ أنهم أغفلوا مرَّة ثالثة، وهى التى وقعت بعد تنزله على رسول الله فى غار حراء. فإذا ما اعتمدنا هذه الرؤية، فإن تأويلهم ينهار من أساسه؛ لأن قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ يدل على أن الرؤية تحققت مرتين، وبتأويلهم المذكور تصبح الرؤية ثلاث مرات، وهو الأمر الذى يخالف ما ثبت من أمر الشريعة.

---

(١) تفسير القرطبى: الجزء السابع عشر ، ص٩٤.

ولكى يستقيم تأويل ذلك الفريق قالوا: إن الرؤيتين لم تتحققا فى السماء، بل واحدة فى الأرض عند بداية الوحى والثانية فى السماء، وهى التى يدلّ عليها قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ .

وإذا قلنا لهم: ماذا تقولون فى الآيات الواردة فى الفقرة (أ)؟ من يكون المقصود بالضمائر الواردة فيها؟ لقالوا: إنه ربّ العالمين، وذلك لكى يستقيم لهم ما تأوّلوه من كتاب الله.

فإذا كان المقصود بتلك الضمائر هو رب العالمين، فكيف تجعلون الضمير فى (رآه) يعود على جبريل عليه السلام ، مع أنه لم يرد له ذكر من قبل كما تفترضون؟! وهو الأمر الذى يخالف قواعد اللغة مخالفة لا يجوز إلصاقها بكتاب الله تعالى.

﴿ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى ﴾

الانتهاء قد يكون فناءً، وقد يكون وصولاً إلى أقصى حدّ ممكنٍ فى الطلب. وقد جاء فى تفسير (سدرة المنتهى) أنها التى ينتهى إليها أمر وعلم الخلائق جميعاً. فليس لأحد أنْ يعلم ما وراءها، حتى وإن كان محمد ﷺ. ويؤيّد ذلك أن الآيات الأولى من سورة النجم جعلت مشهد سدرة المنتهى آخر ما ذُكر لنا من معراجه ﷺ.

وهذه السدرة هى التى أخبرنا عنها ﷺ فى حديث الإسراء والمعراج، فقال: أنه رأى فى أصلها منابع أربعة أنهار، اثنان ظاهران، هما النيل والفرات، وآخران باطنان، جعلهما رب العالمين فى الجنة».

وفى هذه الآيات يخبرنا جل شأنه عن سدرة المنتهى بقوله:

﴿ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴾

فالجنة التى عرضها عرض السموات والأرض ناهيك عن طولها، يبيِّن لنا جل شأنه مكانها، قائلاً: أن جنة المأوى التى جاء وصفها فى كتابه الكريم عند سدرة المنتهى.

فما أعظمها من سدرة! تلك التى تكون جنة المأوى عندها، إشادةً إلى أنها أعظم خطراً فى الخلق وفى الذات من الجنَّة.

ومِّما ورد عن رسول الله ﷺ إشادة إلى قدسيَّة سدرة المنتهى« من قطع سدرة صوّب الله رأسه فى النار» [رواه أبو داود].

وقيل فى تعليل ذلك (من قطع سدرة فى فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثاً وظلماً بغير حق يكون لها فيها صوَّب الله رأسه فى النار) ، والله أعلم.

فلكرامة سدرة المنتهى وقدسيتها، جعل الله تعالى ورسوله قدسيَّة السدر الموجود على الأرض، بأن توعّد كلَّ من يحرقها أو يقطعها لغير حاجة بعذاب النار يوم القيامة.

﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾

أى رآه إذ يغشى السدرة ما يغشى، وهو تعظيم وتكثير لما يغشاها، فقد علُم من هذه العبارة أنّ ما يغشاها من الخلائق الدالة على عظمة الله وجلاله أشياء لا يحيط بها الوصف[1].

وفى صحيح مسلم جاء: ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ قال: فَراشٌ من ذهب.

وفى موضع آخر، سُئل رسول الله ﷺ: ما غشيها؟ فقال: « غشيها نورٌ من الله تعالى حتى ما يستطيع أحد أن ينظر إليها».

فكلنا يعرف الفراش الدنيوى، فما بالك إذا كان ذلك الفراش الحىّ من ذهب، وقد أقبل على سدرة المنتهى، التى أشرقت بنور ربها، حتى ما يستطيع أحد أن ينظر إليها من شدّة الإشراق؟

ويتوارد إلى ذهنى فى خضمّ هذا الحديث ما يفعله النصارى فى أعياد الميلاد، إذ يصنعون شجرة من البلاستيك، وينشرون فى ثناياها مصابيح صغيرة ذات ألوان

---

(١) تفسير النسفى: الجزء الرابع، ص ٢٨٨.

عديدة، ثم يوصلونها بالكهرباء. فإذا أضيئت تلك المصابيح، كان ذلك المنظر الرائع الجميل.

فمن أين جاء النصارى بهذه العادة؟

لا أعتقد أنّ الذهن البشرى قد يبتدع من تلقاء نفسه ملكاً كهذا الذى يفعله النصارى. ثم إن النصارى أهل كتاب، فلم لا يكون نبيُّهم عيسى عليه السلام قد أخبرهم بأمر سدرة المنتهى، وبالنور الذى يغشاها، مثلما أخبرنا رب العالمين فى كتابه الكريم، ورسوله الكريم فى سنته الشريفة؟

أطلق النصارى على تلك الشجرة (شجرة الميلاد)، ونحن نسمّيها بما سماها به رب العالمين (سدرة المنتهى). وبين الميلاد وبين المنتهى مساحة كبيرة، فكيف يتم الربط بينهما؟

يقول جل شأنه: ﴿ **وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ** ﴾[**النجم**: ٤٢]

فنهاية الحياة الدنيا، ومآل الإنسان والخلائق أجمعين أن يكونوا بين يدى رب العالمين.

وفى موضع آخر جاء قوله تعالى: ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ** ﴾[**المؤمنون**: ١١٥] .

ولا يكون الرجوع إلاّ إلى المكان الذى انطلقْتَ منه مغادراً. ففى البدء كان الإنسان أكثر قرباً من الحضرة الإلهيَّة، وعندما ارتُكبت المعصية، وأكل أبونا آدم وزوجه حوّاء من الشجرة، غادرا تلك الحضرة، وكذلك ذريتهما، إلى الأرض.

وبذلك المعنى، يكون الله تعالى هو المبدأ وهو المنتهى.

وإذا كانت سدرة المنتهى هى ما ينتهى إليه أمر الخلائق، فمن باب أولى أن تكون هى المبدأ الذى انطلقت منه؛ ليستقيم بذلك المعنى الذى يعتقده النصارى فى هذه الشجرة عندما أسموها (شجرة الميلاد).

ومن العجيب الذى يدعو إلى مزيد من التأمل أنَّ المسلم إذا مات يغسلونه بماء وسدر، امتثالاً لما ورد عن رسول الله ﷺ.

فهل ترون من بأسٍ فى أنْ يزرع الرجل فى بيته شجرة سدر، لما تحمله هذه الشجرة منْ قدسية، أشارت إلى بعضٍ من جوانبها أحاديث الرسول ﷺ؟

﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾

قال ابن عباس: أى ما عدل يميناً ولا شمالاً، ولا تجاوز الحد الذى رأى[1].

ولقد جاء جل شأنه بلفظ (البصر) دليلاً على أن الرؤية كانت بصريَّة؛ لأن المرئّى مخلوق، وهو سدرة المنتهى، وما يغشاها من الخلائق الدالة على عظمة الله تعالى أيضاً مخلوقة.

فالمخلوق أنْ يرى المخلوق ببصره مهما بلغت عظمته، كما حدث مع محمدﷺ عندما رأى جبريل عليه السلام على حقيقته، ساداً عِظَمُ خَلقه ما بين المشرق والمغرب.

والفعلان (زاغ) و (طغى) أُسندا إلى البصر، وفسرهما ابن عباس كما سبق وأن ذُكر. ونضيف إلى ذلك أن التوهُّم شكل آخر من أشكال الزيغ أو الطغيان، والذى يُترجم بعدم اعتداله فى صحّة ما يراه. أما بصر رسول الله ﷺ لم يتجاوز الحدَّ الذى سُمِح له به، ولم يكن ما رأته عيناه وهماً أو خيالاً، إنما حقيقةً وصدقاً.

﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾

تعرّضنا لها فى بداية حديثنا حول تلك الآيات، ونزيد على ذلك قائلين: إنه سبحانه يقرّ بهذه الآية صدق رؤية رسول الله ﷺ لما أخبرنا به، مؤكداً ذلك باستخدام (لقد) التى تفيد التحقيق.

---

(١) تفسير القرطبى: الجزء السابع عشر، ص٩٧.

وَبَعْدُ ،،،

فهذا ما لدى من قول فى الإسراء والمعراج، ولا أزعم أنه القول الفصل، إنما هو اجتهاد ورؤية رأيتها أرجو أن أكون قد أضفتُ بها شيئاً يكشف لنا أفقاً من آفاق هذه الآية الكبرى التى ستبقى إلى يوم القيامة حيَّة رطبة كأنها حدثت بالأمس، دليلا على أنّ مائدة الله تعالى لا تنقص ولا تتقادم إلى يوم القيامة.

أقول لكم هذه الكلمات، وأنا على يقين بأن القلب المؤمن مؤهل فى كل أوانٍ لمزيد من التأملات المواكبة للغة هذا العصر، لجعل القرآن الكريم والإسلام أجملَ رداء يرتديه الإنسان فى هذا الزمان كما كان أجمل رداء ارتداه المسلمون فى العصور الماضية.

والباب مازال مفتوحاً لكل فتح يحقّقه الله تعالى على يد عبد من عباده، من خلال التأملات العقلية المعتمدة على الأسس الدينية والعلمية.

والله من وراء القصد،،،

محمد مبارك المزيودى

الفهرس

الإهداء ٥

المقدمة ٧

(سبحان الذى أسرى...) ٩

حديث الإسراء ١٣

عود على بدء ٢٥

الإسراء (رؤية اجتهادية) ٣٣

المعراج ٣٨

(والنجم إذا هوى ...) ٥٤

رؤية ٦١

وبعد ٨٦

رقم الايداع :
٢٠٠٢ / ٨٩٥٢
الترقيم الدولى :
977 - 294 - 245- 3

مطابع آمون
٤ الفيروز من ش إسماعيل اباظة
لاظوغلى - القاهرة
تليفون : ٧٩٤٤٥١٧ - ٧٩٤٤٣٥٦